# منازل القمر

قصص

سُمَيّة رمضان

273

أصوات أدبية

# أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• منازل القمر - 273 - قصص - سمية رمضان

• الطبعة الأولى - منتصف نوفمبر 1999



المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١



# إهداء

**إلـــى صـــانـع الصـــور**

# منازل القمر

حـيث كـانت الطفـولة، هناك أنت أيضـاً يا رويدا مـاتزالين؟ تراك تقرأين؟ أتعلمت أخـيـراً تلك اللغة التى نكتبها هنا؟ وأين هى من الأخرى التى كنا نسمعها فى «جنينة» الجامع ودادة فاطمة تمصمص شفتيها وتقول:

«شوف يا ختى البت بتتقصع إزاى»!

كنا تحت رحمتها. أفلت أنت. أما أنا فمازلت تحت رحمتها لأنى أحببتها وعلمت هى أنى وعدت نفسى عندما أستطيع، سوف أعيش مثلها وحدى فى بيت فى باب الشعرية وأن نوافذه سوف تكون مثل نوافذ بيتها بها «قلل» لها أغطية نحاسية لامعة، وسوف أصحن البن فى مصحنة يدوية من خشب وأشرب القهوة على «السبرتاية» وأمضغ اللبان البلدى، وسوف تكون لى طرحة بيضاء شاهقة البياض وسوف أغلى الغسيل فى صفيحة على وابور الجاز وأبشر الصابون وأضيف إليه البوتاس

وسـوف يشـيع ذلك فى البيت رائحـة جـميلة مـثل رائحـة الشعرية.

كم من المرات زرنا ذلك البيت؟ وكل مرة حدثتك عنه لا تذكرين. هل علمت منذ البداية أننى أحببت مكانا اندثر وصار لا وجود له؟ كم من الوقت مر؟ أربعون عاما؟

★★★

هل كـان يقـتضى الأمـر كل ذلك الوقت أم أنك علمت منذ اللحظة الأولى أنى سـوف أعـود لأبحث عن كل تلك الأمـاكن التى صنعناها سـويا وأن عبء الحكاية سـوف يكون من نصيبى أنا؟.

ألهذا نسيت صوت مسز رشوان البدين يلوك إنجليزية البى بى سى ملتاعا يوم تطوعت وأريتيها قصيدتى؟ ألم يحدث أنها صرخت وكأنها رأت شبحاً:

– من أين أتيت بهذا بحق السماء؟

ألم يقع سؤالها على أذنك وقعاً شكسبيريا خالصا؟ ونظرت لى عبر الفصل الطويل فأشحت عنك ورحت أعدو بعـيداً بذهنى عن منظر مـسـز رشـوان وهـى تدرك رويداً

أنها لم تر شبحاً وإنما وحشاً بعين واحدة. وعندما عدت من رحلتى عبر النافذة وجدتك بجانبى وقد تضاءل الوحش كثيرا حتى صار فى حجم عقلة الأصبع. تذكرين أن انجلترا كانت مليئة بمثل تلك المخلوقات المشوهة فى القرن التاسع عشر وأنهم كانوا يذهبون بها إلى السيرك ويجنى عارضوها مالا كثيرا من الجمهور الذى كان شغوفاً جداً بمشاهدة مسوخ الطبيعة التى تجلب من وراء البحار. ألم ترينا مسز رشوان صورة الرجل الفيل لتثبت لنا كلامها؟ ألم ترينا مسز رشوان صور «ساسكس» البديعة تكسوها الأشجار عملاقة وارقة، وراحت تحدث نفسها فى صوت خفيض بأن من يختار الحياة وراء البحار عليه أن ينسى كم هى جميلة «ساسكس» وكم هو رطب هانئ العيش فى إنجلترا. ألم نتعاهد يومها ألا نكتب الإنجليزية إلا إن خصت الدرس والمدرسة؟ وإن نسيت إحدانا تذكرها الأخرى أن الرجل الفيل بالفعل جلب من وراء البحر لأنه فى حقيقة الأمر ولد فى «ساسكس».

***

فى البيت ونحن ننتظر خروج الكبار نستعيد هيمنتنا على المكان، كيف كنا ننظر خلف أمهاتنا نتعجل تلاشى دقة كعوبهن الرفيعة ووشوشة الفساتين التافتاه المنقوشة وفى أنوفنا خليط من البودرة «الكومباكت» والروج، أنفاسهن المعطرة بال «جورفيان» تدق لها قلوبنا فى لهفة، لقد اقترب، اقترب الوقت وآنت الحكايا. حياكة الخطط الصغيرة والعهود وتبادل الأسرار. أذكر عينى أمك عينا أمك كانتا سوداوين مثل عينيك صغيرتين تبرقان وكانتا توصيانى بك مع أنك كنت الأكبر. هل لازلت الأكبر؟ أكبر من أن توحشك دادة فاطمة؟ أكبر من أن تكرهى مسز رشوان؟ أكبر من أن تذكرى كيف كانت أمك تنظر لى وهى تقول:

– لا تدعى رويدا تسهر بعد التاسعة. أنا أعلم كم تحبين الحكايات.

وأمى تنظر خلفها، تبتسم معتذرة، قلقة كأنها هى الأخرى تظن بى نفس الظنون، ثم ينغلق الباب وراءهما

ونجلس أنا وأنت نتنفس حـريتنا الموقـوتة ونكتم صـوت ضحكاتنا من سذاجة تخوفاتهما، ولكن نظل نرهف آذاننا لوقع كعوبهما السخيفة مقبلة مرة أخرى بعد منتصف الليل.

★★★

أستـرجع صـوتك تغنين وأناملك الطويلة ترقم أوتار الجيتار: لكل فصل من فصول السنة موعد. لكل حال من أحوال الحياة ميقات.. ولكل امرئ منزل يعود إليه.

# الأماكن أوقات

صحوت فإذ فوق رأسى مباشرة مكان دائرة الضوء التى رأيتها قبل أن ينيمونى، فاحماً، أسود. من الزوايا يصل عينى ضوء آخر، أدفأ لكنه ضعيف. كنت أظن وكانوا يظنون معى أنى لو صحوت بعد غفوتى سوف تتلاشى أشجار الصنوبر العالية من عيونى. لكن صحوت وقد أضاف ذهنى إلى الأشجار جبلا مدبباً رمادياً شاهقاً وضباباً رقيقاً يغشى سطح الأرض ولا يرتفع أعلى من الحشائش. لم يكن غريباً على هذا الجبل. كثيراً ما رأيته في أحلامى. لكنه لم يكن يشبه أى جبل رأيته بالفعل أو فى الصور. كان مزيجاً من جبال البحر الأحمر الساخنة وجبال الألب المثلجة البيضاء. لم يكن «مون بلون» ولم يكن «إيفرست»، لم يكن له ما لهذين من صفاقة متعالية تدعو إلى التحدى. كان أشبه بـ «كليمانجارو» وكأنه قُدَّ من زَبَدِ الأساطير الأفريقية الطيبة. كان مظلماً تماما عند

القاعدة، لكن كثافته تتدرج حتى يصبح شفافاً عند القمة. وكان سرابا. كلما اقتربت منه ابتعد. لما تأكدت أنى لن أصله أبدا مهما حاولت، اخترت بقعة نيرة بين الأشجار ذكرتنى بالأمل الذى قالوا: إنه يراودهم فى شفائى وأضاءوا الضوء فوق رأسى فعميت. جعلت من تلك البقعة مكانا لى. لم يكن ذلك أمراً سهلا، فأنا لم يُطلب أو يُتوقع منى مثل هذا من قبل. لم أصنع لنفسى مكانا من قبل هذا.

كانت الأماكن كلها موجودة وجود القدم، بها نفس الأشياء فى نفس المواضع دائماً. لم يكن على سوى الانتقال. من بيتنا إلى بيت جدتى فى العطلات القصيرة ومن الأسكندرية فى الصيف إلى المنيا في الخريف. كانت الأماكن مربوطة بمواعيد تجىء فى دورات لا تحيد من تلقاء نفسها. وكان العالم مرتبا بشكل مسبق يحكمه نظام أزلى، عالم يستعيد قدرته على الخلق من ذكرى خلق آخر. يغفو فإذا تذكر، استعاد نشاطه. مثلما كان بيتنا يستعيد نشاطه وأمى تلوّن بيض شم النسيم ألوانا زاهية عميقة،

وعندما تنتهى تضع المفرش الدانتلاّ الورقى الأبيض فى السبت الصغير وترص فوقه البيض. بعدها كانت تعطينا بضع بيضات أخرى نلونها كما يتراءى لنا بالفرشاة والألوان ولكنها أبداً لم تكن فى بهاء بيضات أمى اللامعة الداكنة.. مثلما كان مطبخ جدتى يعيد للشارع كله نشاطه يوم عيد الأضحى بعد أن تكون الضحايا قد وزعت وبقى الأوزى المحشو على الرخامة الكبيرة المستطيلة فى انتظارها لتدهنه بالزبدة وتدخله الفرن بيدها.

كان هذا رصيد ذاكرتى عن الأماكن: الأماكن أوقات تحييها النساء بأن يتذكرنها فى مواعيدها وتتجدد الحياة.

أما هنا فكان مكانا بلا ذاكرة وبلا حدود، اللهم إلا جبلاً بعيداً أبداً وأشجاراً على امتداد البصر.

الغريب أنهم كانوا يستحثوننى على العودة بالعقاقير والكلام. لكن نية الرجوع لم تستو أبداً بين أضلعى. كلما نظرت إلى المكان أحاول أن أحدد مغزى جاذبيته، امتد من قلبى شعور يظلّ يفيض حتى يبتلعنى تماما: هذا المكان يشبه أن تنسانى أمى. لا نظام لأشياء تراعى

مواضعها، لا إمكانية لتلوين بيض أو إعداد أوزى للفرن، لا مواعيد للعب على شط البحر ولا موسم لجنى القطن. كيف يكون لمكان كهذا أى سحر؟

أى سحر هذا الشعور المخيف الذي يتراوح بين زهو الاستحواذ الوشيك والامتلاك النهائى، تسمعه فى صوت أحدهم يقول: «وحدى وبيدى هاتين» ويتطلع ليديه كأنه نحت جبلا من موج البحر. شتّان بين إنكار الآخرين وما كنا نفعل أنا وأنت ببلكون بيتنا ونحن نحولها إلى خيمة صغيرة بملاءات أسرتنا ومشابك الغسيل ونصنع لنا فيها حياة كاملة وندعو أن تنسانا أمى وأمك بقية النهار. أى سحر يعد و يمنى باليقين وضع الحدود أول مرة؟

رسمت الجبل ووضعت حوله هالة كالتى تنير فوق رأسى عندما يعدّونى للعلاج. فى ذات اللحظة أصابنى كاللطمة المباغتة شعور فظيع بالسأم وكأن المعنى انسحب من حياتى دفعة واحدة لحظة إتمام الرسم. استغلق علىّ أمر هذا الشعور فى ركب ما ظننته لحظة تحديد كيانى وسط حس المشاع والاستباحة التي تتحكم في هذا

المكان. في البداية ظننت أنى، وقد أصبح لى مكان، أفتقد الناس. الناس كما يبدون فى الشارع والأتوبيس وفى الحديقة والمحلات لا كما يبدون فى المستشفيات. وشعرت فعلاً بالوحشة لكنها لم تكن ما أعرفه عن الوحشة. لم يكن ذلك الشعور الذى كان ينتابنى فى الليل وأنت تلهو وحدك وأنا أطوف البيت كالروح الهائمة. لم تكن وحشتى وحشة الهالك اليائس من الرحمة. كانت وحشة على وشك الانفراج يشوبها وعى خفى أنى أحن إليها لو تركتنى، كأنها عزلة مرغوبة ومهدَدَة لكنها فى ذات الوقت خانقة مدمرة. كأنى مت بمحض إرادتى وأعلم أنى مت وأود لو لم يكن الأمر بالفعل كذلك. قلت وحشة؟ نعم، وحشة أقرب إلى الحسرة القلقة.

بعدها بدأت فكرة العودة تلح على لكنى كلما قررت التعاون مع من كانوا يساعدوننى على العودة، كلما استسلمت لوخز الإبر وتلال الأدوية الصغيرة، أرجأت قرارى لليوم التالى.

كنت مأخوذة تماماً بدائرة الضوء التى رسمتها حدوداً

حول الجبل الذى كنت أرسمه فى اليوم الواحد مئات المرات، ولا ألتقط قيد ذرة من كنهه البديع. وعادت الرغبة المحمومة تدفعنى فلا أملُّ محاولة الإمساك بتلك اللحظة التي شاهدت فيها الجبل.. أين؟ متى عشقت الجبل؟!

هذا كلام لا أقوله إلا لكَ بالطبع فهنا الأمور تؤول على نحو «فرويدى» سقيم. لو كنت أسمع أصواتاً وأرى أشباحاً لاطمأنوا أن الأمور تجرى فى حيّز المعتاد. لكن هذا الجبل يؤرقهم كثيراً. ويصر دكتور بلابيرج أن أعطيه اسما. أقول له إنه قد يكون عرفة أو طور سيناء أو الكرمل. ولكن لأنى لا يبدو على أى عَرَضٍ من أعراض التدين يعزون هوسى بالجبل إلى أشياء مخجلة. مخجلة بالنسبة لهم. أنا لا أخجل من جسدى وحاجاته. تلك هى الهوة التى تفصل بينى وبين كل فرصة للفهم هنا. وإن كانت همزة واحدة تكفى لو أرادوا أن يفهموا، وحتى يرى الطبيب أنى لست فى حاجة إلى علاج وأن فى مقدوره أن يعيدنى من حيث أتيت، فبالله عليك قل لى إن كان ذلك مكانا مازال قائما.

# الطابق الثاني

وصلت إلى الطريق الترابى الذى يدلف عبر سور واطئ تحيطه أشجار (الجزوارينا) لتحجب الحديقة فلا تظهر إلا مقاطع ضئيلة من البناء فيبدو للخيال من هذا البعد، أكبر من الحقيقة التي تسجلها العين بعد الولوج من باب السور: حديدى مربع.

أعشاب الورود البلدية تحيط بمساحة داكنة من النجيل الأخضر الناعم، وفى الثلث الأخير من تلك المساحة المفتوحة تحت ظل بلكون عريض تجمع أناس فى ملابس مرحة فضفاضة يشربون عصير الليمون، ويأكلون ساندويتشات صغيرة. وضعت (الشفاشق) الزجاجية الكبيرة وصينية الساندويتشات فى ركن تحت شجرة مانجو سامقة على (ترابيزة) مربعة عليها مفرش أبيض شاهق من مفارش «أخميم»: رسم اللوتس.

تقدمت فى ثبات أحييهم إلا أنهم لم يلتفتوا لى، فذهبت

إلى الساندويتشات وأخذت واحدا كانت به جبنة «ملوى» البيضاء ذات الرائحة النفاذة وخيار منعش. رحت أقضم الساندويتش وأنا أدور حول البيت إلى حديقة الخضروات خلف البيت ووقعت عينى على التكعيبة. لم تزل حبلى بالعنب فى هذا الوقت المتأخر من السنة. التفت عن يمينى ورأيت البئر العتيق.

منذ اللحظة التى تجاهلنى فيها جمع الليمونادة، داخلنى شعور بأن علىّ الحرص، وكالغريب يراعى كل الأصول قررت عدم التجوال هكذا. فى طريق عودتى إلى موقع الحفل العائلى سمعت أصواتاً تقترب من الباب الخلفى ووجلت ولم أدر لم.

اختبأت وراء الصفاصفة التي مازالت تنهل من جدول الماء خلف السور ورحت أراقب مصدر الصوت. بعد قليل ظهرت صحبة من البنات الواحدة فى كعب الأخرى. خمس أو ست بنات كبراهن لا تزيد على الثانية عشرة من عمرها.



كن يلبسن ملابس بيضاء منفوشة، فى خصر كل

واحدة يلمع حزام عريض من الساتان فى ألوان زاهية وفى شعورهن فيونكات بيضاء منشاة. كن يضحكن ويثرثرن ثم رحن فى اتجاه التكعيبة. ظننت أن فى وسعهن رؤيتى لكنهن لم يلحظننى فاستجمعت بعضاً من شجاعتى ودخلت من الباب الذى خرجن منه، وقد نسيت قرارى بالرجوع.

كانت الصالة الكبيرة فى الدور الأرضى تغمرها شمس بعد ظهر خريف الصعيد. أما الرّدهة المؤدية إلى غرفة الطعام والمطبخ فكانت مظلمة تماماً. دلفت عبر الردهة وفتحت باب غرفة الطعام: غرفة طويلة ممتدة، على جانبها الغربى شبابيك طويلة تؤدى إلى البلكون الذى كان الجمع يأكل تحته الساندويتشات، أما نهايتها فتؤدى إلى حجرة مربعة متوسطة الحجم. فتحت شباكا عن يسارى ودخلت البلكون واختبأت وراء عامود من أعمدتها. ثم، وبحرص شديد رحت أتلمس طريقاً بين الكنب والكراسى التي كانت مصنوعة من الخيرزان القديم، عليها (شلت) ومخدات في لون أصفر ليموني بهيج ورحت أسترق

السمع. كانت النساء تضحك ضحكات صغيرة، يكتمنها بسرعة، والرجال يمسحون على شواربهم من حين لآخر. فجأة سكت الجمع. هلّت عليهم سيدة عجوز. قام من كان جالساً واعتدل من كان واقفاً بغير اكتراث. وجرى اثنان من الرجال صوب السيدة وقطع ثالث حركته لما رأى الآخرين قد سبقاه إليها. تنحى رجل وامرأة كانا يجلسان على كنبة تحت البلكون مباشرة عن مكانهما للسيدة. كان كل من الرجلين اللذين هبّا إليها يمسك بذراع ثم أجلساها في رفق وحرص.

كانت السيدة بدينة جداً، ملأت الكنبة تقريبا عندما جلست، ووقف الجميع في أدب ينتظرون فيما يبدو، أن تسمح لهم بالاسترخاء. نظرت إليهم السيدة نظرة ازدراء شملتهم جميعاً وبدا صوتها مرهقاً عندما بدأت الكلام. كانت تتكلم لهجة بدوية صارمة، ترجمها ذهني إلى قصيدة رثاء مفعمة باليأس. البيت في حاجة إلى صيانة. لو أردتم أن تصحبوا أولادكم إلى هنا كلما يحلو لكم، فاعلموا أني أصبحت لا أقوى على الصعود إلى الدور

الثانى وأن كل ما فيه أهمل وصار إلى خراب. حجرة الخزين الشتوية طالتها المياه ولا يحضرون لى شيئاً منها إلا ويكون عفناً. (البطاطس والثوم والبصل). أقضى ساعات أفرزها للحصول على بعض ثمرات تصلح. حجرة الجلوس اهترأت ستائرها ونالت (العتة) من كل الأكلمة. المطبخ الصغير لا يدخل منذ انفجرت فيه أنبوبة الغاز وأحالته إلى شىء أسود مهبب لا معالم له. خزان المياه العلوى صدئ وتنزل منه المياه فى لون الشاى ورفع الماء من البئر يحتاج مجهوداً لا أقدر عليه. (البغدادلى) فى البلكون الشتوية يتهاوى. مات اللبلاب والفل والياسمين. بيتكم يتهاوى ومع هذا أبشروا. المشترون كُثُر.

سكتت برهة ولما حاولت أن تكمل انحاشت الكلمات. كانت متأثرة جدا لكنها لم تبك. وبدا الجمع متأثراً لتأثرها فراح واحد يصب لها كوباً من الليمونادة وأخرج آخر منديلاً من جيبه وأعطاه لها بلا داع. وأخرى وقفت بجانبها تمسح على شعرها فى رفق ومحبة. شغلوا أنفسهم بها تماماً. بعد قليل أراد أحدهم أن يخفف من

ثقل الموقف فراح يطلق نكاتاً هزيلة ويرجوها أن تبتسم. لكن الحزن ظل جليا على مُحَيّاها. كانت بين حين وحين تهز رأسها أسفاً ثم قامت وتركتهم ولم يتبعها أحد.

في اللحظة الّتي اختفت عن أنظارهم السيدة البدينة العجوز عاد الجمع إلى سيرتهم الأولى. وبدأت غرفة الطعام على يمينى تضجّ بأصوات إعداد سفرة الغداء وشممت رائحة طعام طيبة، ثم رأيتهم يدخلون الواحد تلو الآخر والأخرى ويتخذون أماكنهم حول المائدة ويبدأون فى تناول الطعام ودار بينهم حديث أبدوا فيه الكثير من الحماسة والتشبث بوجهات النظر.

فمن قائل إن أفضل الأوقات للمغادرة هي الصباح الباكر. ومن قائل إنهم لو غادروا فى الصباح، حتى لو بدأوا رحلتهم مع بزوغ الشمس، سوف يلحقهم قيظ الظهيرة فى الطريق. ثم قرروا - وبالإجماع - فجأة السفر بعد الغداء مباشرة. تركوا السفرة على حالها وبدأت جلبة للمة الأشياء تتصاعد وأخذوا ينادون على البنات اللاتى كن ما زلن تحت التكعيبة فيما يبدو وفاتهن

الغداء ثم تساءلوا فيما بينهم عن السيدة العجوز وتراها أين اختفت. وسمعت أحدهم يقول إنها ربما تكون قد نجحت في الوصول إلى الطابق الثاني! وانطلقت ضحكات النساء الصغيرة وهن يدخلن العربات التى كان يقودها الرجال، واختفوا جميعاً بسرعة على الطريق.

جَدّتي

جدتي ربتني منذ أن مات أبواي. وقورة، متجهمة، نرجسية إلى أبعد الحدود. وبها مس قوي من البارانويا، يقال إنه يصيب الأفراد في عائلتها دائما بعد الستين. أبداً لا تبتسم ولا تضحك بالطبع. شيء ما يثقل على كاهلها طيلة الوقت. لما أمسكت بها تضحك يوما كانت ضحكتها صفراء هستيرية لا تتدفق كما يتدفق الضحك الذي نعلم أنه يجيء من القلب. شغلتني كثيراً، فقد كان الكثير من أمور حياتي لا يستقيم إلا بها. كانت نشيطة ودؤوبا وطالما قارنت نفسي بها فوجدتني يعوزني شيء أساسي. هذا الاهتمام – الذي كان يبدو لي مرضياً– بالتفاصيل. كنت أقف أمام التفاصيل لا أدري ماذا أفعل بها. هي تفاصيل. مضيعة للوقت. لكني فهمت وأنا أراقبها كيف تتحول تلك الاهتمامات الدنيئة إلى خيوط لا يراها غيرها تخنق بها كل من يتجرأ على التشكيك في

سلطتها المطلقة. كانت عطوفا وكريمة وكنت أسمع بأذنى إطراء كل من يعاملها على حسن إدراكها ومدى فهمها درايتها بأشياء لا يتخيل الناس أن تلك السيدة تعرفها. كانت تفهم فى كل شىء: الدهانات، الأرضيات، السباكة، أعمال البناء. وكانت تعرف أفضل الطرق لتنظيف المنزل من الحشرات، وتميز من صوت موتور العربية، حالة الموتور وما الذى يحتاج للصيانة فيه. إذا تكلمت هز الناس رؤوسهم موافقين، وإذا أمرت لا يناقشها أحد. وكان هذا يشغلنى إلى حدّ بعيد، لأنى لاحظت أن أوامرها كثيراً ما تكون غير منطقية. إن حرصها مثلا على معرفة حجم «البونطة» المستعملة فى «الشنيور» الذى جاء به الكهربائى ليفتح فتحة يمرر منها ماسورة الإيريال فى إحدى المرات، تسبب فى أننى ظللت بلا حجرة تخصنى لمدة شهر بأكمله. فقد تشاجرت جدتى مع الكهربائى لأنه كان سيفتح فتحة أكبر مما يحتاج فى الواقع لإدخال الماسورة. ولم يكن ذلك مهماً لأن الحجرة كانت سوف تدهن على أية حال وحاول الرجل الشرح: كان سيضيع

الكثير من الوقت فى الحصول على «بونطة» أصغر وكان «النقاش» سيضطر للانتظار حتى يفرغ هو من إدخال الإيريال وكان الموضوع لا يستأهل كل هذا لأنهم سوف يضطرون إلى «معجنة» الحائط فى مواضع كثيرة فلا ضرر من أن يفعلوا نفس الشىء حول فتحة الإيريال حتى لو اضطروا أن يملأوا بعض الفراغ بالجبس. لكنها أبت فتركنا الرجل على أنه ذاهب للبحث عن «بونطة» ولم يعد.

ولم تبيض الحجرة وكانت للأسف حجرتى التى أنام فيها. ظللت شهراً بلا حجرة، لأنهم كانوا قد رتبوها للبياض فكوموا السرير والمكتب والكرسى والكومودينو فى المنتصف ونزعوا الستائر وأنزلوا البياض القديم من على الحائط. وكان على أن أنام معها فى حجرتها حتى تجىء بكهربائى آخر وبعدها تبيض الحجرة. لم أتساءل ولم يتساءل أحد من أهل المنزل الآخرين. كنا كثرين، وكانت واقعة الكهربائى قد آلمتنا وخلقت جواً من الكآبة التى تخلقها فى العادة المشادّات التى تنتهى بوقف الحال على ما هو عليه. ولكن عندما امتد الوقت وزالت الكآبة

ولاحظت أنها لا تتخذ أية إجراءات لبياض الحجرة التى لم أكن أريد دهانها من الأصل لو لم تصر هى، ولم أكن أريد بها تليفزيون لو لم تقرر هى أن تعطينى تليفزيونها الخاص وتشترى لنفسها تليفزيونا جديداً، سألتها وتحمست بالكلام لمزاولة العمل فى حجرتى لكن حجرات أخرى كثيرة بدأ العمل بها وانتهى وحجرتى على ما هى عليه.

كانت تصحو مبكرة فأشعر بحركتها فى الغرفة تتهمنى بالكسل. أقوم قبل أن آخذ قسطى من الراحة وأضع الروب فوق كتفى لا أدرى ماذا أفعل بنفسى حتى يحين موعد النزول إلى العمل. فإذا دخلت المطبخ أعد لنفسى فنجان القهوة التى أحبها فى الصباح وجدتها هناك. أعود أدراجى لأدخل الحمام فإذا بها فى الطرقة تعبث بالجرائد، وتومئ لى ناحية غرفة الجلوس وتغلف صوتها بنبرة متعالية على قلة حيلتى: قهوتك هنا.

خيّل إلىّ فى وقت من الأوقات أن قدرتها على التحكم فى من حولها تنبع من نشاطها وأنها تقوم عنا بما

نتكاسل فى عمله من شؤوننا. لكن كنا كلنا نعمل.
أخوالى الاثنين، وبناتهما الثلاث وزوجاتهما وأنا. وكانت
هى تبدى حدبها وحرصها على ضبط أمور البيت، فكان
الأمر يبدو منطقياً لنا جميعاً. نحن نعمل من أجل الماهية
التى نعطيها إياها أول كل شهر، وهى تتولى شؤون
المنزل. كان الأمر منطقياً حتى اللحظة التى تقاعست فيها
عن إتمام بياض حجرتى. حجرتى كانت عالمى. بها
دولابى وكتبى الضئيلة. أشيائى. تذكارات صغيرة من هنا
وهناك. عندما أقول: أنا عائدة، كان هذا ما يتراءى لى.
حجرتى مرتبة نظيفة. مكتبى والنافذة تؤطر الكافورة
العتيقة. كنت أشعر بالضياع خارج تلك الغرفة. أدور فى
البيت هائمة لا أدرى لى مستقراً حتى ميعاد النوم.
أستحم وألبس قميصى وأدخل سرير جدتى وكأنى
أستأجر موضع رأسى من قريبة كريمة تمن على. وكان
حسى هذا بالضيع سببه مشادة قامت بين جدتى
والكهربائى على سعة دائرة الفتحة فى الجدار الذى كان
سوف يدخل منها ماسورة الإيريال! كانت قد وقفت

تناقشه ما يزيد على ثلث الساعة وأنا متكئة على الحائط فى ملل، أنتظر انتهاء النقاش العقيم، إلى أن بدأوا يتطرقون إلى أنواع الجبس وقوام الدهانات فلم أتمالك نفسى وأفلتت منى ضحكة صغيرة لا أظن أنى سمحت لذيلها المتهكم أن يتبعها. لكن الكهربائى التقط الصوت القصير ونظر ناحيتى وعيناه تدمعان، مصدرتان خيطاً مغناطيسياً أمسك بثانية السخرية التى كنت أوقن أنى كتمتها وبعث لى ابتسامة مؤازرة حولت المنظر فى اللحظة من عبثية اللاجدوى التى كان الجدل قد بثها فى هواء الغرفة إلى معنى جميل لا أدرى له وصفا. وقتها سمعت ضحكتها الهستيرية الصفراء ولكن وحتى هذه اللحظة لم يخطر ببالى أن انتقامها سيطول شهرا بكامله.

# الوحدة

انكسرت الحلقة المعدنية الصغيرة فى يد أحمد. كانت الحلقة هى مجمل أدوات سحره فأفلتت منه صيحة قصيرة. كدت أتحرك أواسيه إلا أن شيئاً غريبا حل بذا جميعاً لدى انكسار الحلقة المعدنية. صارت المساحة التي تفصل بين أجسادنا لها قوام يغلفنا ويربطنا، وسرى بيننا خيط ذهبى أخذ يروح ويجئ فى تعاريج لطيفة حتى اكتمل دائرة كاملة جذبت أقدامنا إلى داخلها. شمل كيانى دفء جميل وهربت منى الرغبة فى الكلام. من بعيد وفى اتجاه البيت جاءنا صوت موسيقى وترية ناعمة ذات إيقاع بطىء فمددنا أذرعنا فى نفس اللحظة التي وصلنا فيها صوت الموسيقى وراحت الأكف تلامس الأكتاف ورحنا نرقص دبكة متأنية فى دقة بالغة ولم أكن أعلم كيف يكون التدبيك من قبل، ولم نكن قد رقصنا سويا من قبل.

خرجت الشمس تطل من وراء سحب الشتاء الداكنة

وراحت تفرش غشاوة رقيقة. غلالات دافئة تدفع الجمد عن أطراف الدائرة التي كنا نرقص فيها. كان البَرَدُ يغلف الأرض ثم أخذت رقعة الدفء يتسع قطرها ويتسع حتى لم نعد نرى الحدود بين الربيع حولنا والصقيع المبتعد. عندما سكتت الموسيقى دخل الدائرة هدهد يحمل فى منقاره نوار زهرة برتقال تركها عند قدم أحمد وطار.

كان أحمد أول من قطع سكون الدهشة، قال فى صوت خفيض يحدث نفسه:

- ما هذا؟ ما هذا الذي يحدث لنا؟

فردت هند وكان صوتها أقوى مما تحتمل اللحظة:

- معناه أننا نحلم حلما جميلا.

هند أنهت المسألة ورجعت بنا إلى عالم الواقع الخفيف ونفت تلك اللحظة المحملة، الحبلى بالمعنى بعيداً من حيث أتت وبذا كان فى مقدورى أن أضيف بلا شعور بوطأة أية مسئولية:

- لا يمكن أن نكون ثلاثتنا نحلم نفس الحلم.

من المؤكد أن ما قلت على معقوليته أغضب أحمد أو

أخجله فقال باترا فرص الاسترسال:

- علينا العودة.

لدى سماع الاقتراح الذي أرسله أحمد فى نبرة آمرة هممت بالخروج من الدائرة لكن أحمد وهند ظلا مكانيهما يتجادلان وهند تتوسل إلى أحمد ألا يفسد الحلم:

- وليكن ما يكون.. ألم نره هنا..

ومدت يدها تلتقط نوارة البرتقال التى تركها الهدهد لكن أحمد جذبها بعنف قبل أن تصل يدها إلى الزهرة وقال فى صوت غاضب:

- كفانا! الوقت تأخر وأمنا تقلق علينا!

ولما لم ترد هند قال محاولا استدراك قسوته:

- ألا تشعرين بالبرد يا هند؟

ولم ترد هند. وقفت في عناد أبكم أصم تنظر فى اتجاه طيران الهدهد فتدخلت فى صالح أحمد:

- أنا أشعر بالبرد، لقد انقلب الجو فعلا. هيا بنا.

عقدت هند ذراعيها فوق صدرها وقالت فى إصرار:

- أنا لاأشعر بالبرد على العكس!

ونفد صبر أحمد فعلا صوته مستفزاً:

– اعترفى بالحقيقة، اعترفى وبلا عناد!

ردت هند فى تحدٍ لم أعهده فيها، وعيناها تتسعان فى غضب واضح:

– الحقيقة هى أنى كنت أشعر بالبرد لكن شيئاً حدث أزاح السحب وبدأ الدفء يسرى فى جسدى ثم نظرت حولى ورأيت الصقيع يتلاشى ورقعة الدفء يتسع قطرها ويتسع وذاب الجمدَ.

كانت تقول الحقيقة. هذا أيضاً ما شعرت لكنى خنتها ربما لأنى خفت أن تتبدل الأمور، أن يحدث شىء جديد. خفت أن نكون قد تخطينا حدوداً ما. خفت أن أرجع فلا أجد أمى أو بيتنا، لقد كان كل ما حولى فى تلك اللحظة غير ما ألفت حتى هند وأحمد تبدلا فقلت:

– هند لماذا تصرين؟ أحمد معه حق.

وقال أحمد:

– أفيقى يا هند انتهت اللعبة، علينا الآن العودة إلى المنزل.

لكن هند قالت في ثقة:

– عودوا أنتم، أنا أود البقاء هنا.

مددت يدى أتلمس ذراعيها التى كانت قد شمرت عنهما البلوفر وفوجئت بيدى مثلجة فوق دفء الذراعين. نظرت إلى أحمد أستلهم منه موقفي لكنه تفادى نظرتى وراح يتمتم شيئاً تحت أنفاسه المتسارعة ثم قال فى صوت عال لم تكن تستدعيه المسافة بيننا:

– أنت حرة! أنا عائد!

وبالفعل هَمَّ بالابتعاد، فانتفضت وراءه وصرخت:

أحمد انتظر! ورحت أصرخ فى هند أيضاً لكنها ظلت على وقفتها. تركت أحمد يمضى ورجعت لها وهو يبتعد فى إصرار، أرجوها وهى صامدة وكأنها نبتت لها جذور فى الأرض. صوبت عينيها إلىَّ وقالت فى صوت واثق هادئ:

– لن أبرح مكانى. هو الذى بدأ اللعبة والآن يريد أن نتبعه لمجرد أنه خاف فتذكّر أمه.

عدت أركض وراء أحمد وقد بدأ الجزع يتملكني

وصرخت مرة أخيرة فى اتجاه هند:

- أنا أيضاً ذاهبة يا هند.. هيا.. سوف نتركك وحدك.

لما أصبحت بجوار أحمد تمهل فى مشيته وراح يسترق النظر وراءه. كلما استدرت كانت هند ترقص وقد رفعت ذراعيها على كتفين وهميتين.

طوال طريق العودة كان أحمد يتمتم:

- حمقاء.. حمقاء، سوف تأكلها الذئاب.

عندما فتحت لنا أمنا الباب كان أول ما نطقت به:

- هند؟ أين هند؟

ولما لم نجبها استولى الوجل على صوتها:

- سلمى؟ أين هند؟

رددت وقواى تخور.

- تركناها تلعب. واستدارت أمى تزعق فى أحمد:

- تركتها تلعب يا أحمد؟ تركتها تأكلها الذئاب؟ تركت أختك تأكلها الذئاب؟

ثم رأيناها من نافذة غرفة الطعام تجتاز تكعيبة العنب وتهرْوِلُ فى اتجاه الغوطة.

**وعندما وصلت الي حيث كانت ابنتها وجدتها علي وقفتها فسألت وصوتها متكسر بأثر بكاء مكتوم :**

- **ليش ما أرجعتي معن ماما ؟**
- **خفت.**
- **شو خوفك ماما ؟**
- **خفت من البرد .**

حجر رشيد

52

الطريق إلى رشيد تَحُفُّهُ مليون نخلة. مليون علامة استفهام تتطاول على السماء. بعد أربعين كيلو متر من الإسكندرية يبدأ النخيل فى التراجع الفوضوى أمام حفريات (المقاولون العرب). فى شرق الميدان بجوار النقطة: متحف رشيد: بيت «عرب كلى» سابقا والأطفال يتدافعون. صعدت وراءهم إلى الطابق الثانى والمدرس يشير فوق الرؤوس الصغيرة:

– انظروا إلى التماثيل الشمع يا ولاد. هكذا كان الناس يأكلون وقتها. كانوا يأكلون السمك.

وكانت الرؤوس الصغيرة تَشْرئِبُّ كل مرة يهم المدرس «بشرح» المعروضات، وعندما ينتهى ترتخى الرؤوس كالأزهار الذابلة. رأس صغير واحد ظل يتطاول كل مرة قبل أن يعيد المدرس «الشرح» يسأل فى صوت عال والعينان تتفحصان التماثيل الثلاثة من وراء درابزين

الإيوان:

– فين حجر رشيد يا أستاذ؟

لم يعره الأستاذ انتباهاً وراح يكرر:

– انظروا كانوا يأكلون السمك هكذا.

على جانبى الإيوان وضعت أوان فخارية لصقت فوقها على الحائط بطاقات كتبت على آلة كاتبة عتيقة: «زير للشرب من العصر العثمانى» كانوا يأكلون السمك ويشربون. وجاء صوت الطفل مرة ثانية :

– فين حجر رشيد يا أستاذ ؟

فجأة علا صوت راديو بالخارج على أغنية لم أسمعها من زمن.. «جتلوه السودانية» يا أبويا من فوج ضهر الهجين.. وكما بدأ اللحن فجأة انقطع فجأة. وبدأ مد الأطفال فى الانحسار.

شعرت بالظمأ والولد صاحب سؤال الحجر يرفع صوته مرة أخيرة قبل أن يغادر الحجرة فى رتابة أثقلت قلبى.

– فين حجر رشيد يا أستاذ؟

ووجدتنى أجيبه فى قسوة:

- حجر رشيد فى المتحف البريطانى فى لندن!

كانوا قبل أن أنطق يحدثون جلبة تدافع التلاميذ الصغار أمام معروضات المتاحف ولكن بعد أن علا صوتى هكذا وسطهم صمتوا تماماً. نظر إلىّ المدرس نظرة عاتبة، ثم هش على أطفاله وقال:

- يللا بينا يا ولاد من هنا.

انزلق عقلى ينفى عن نفسه العزلة التى فرضها على المدرس فى جملة واحدة انصاع لها الصغار فى هدوء. ولأن انصياعهم الصامت هذا آلمنى أكثر مما آلمتنى نظرة الرجل وهو يبعدهم عنى وجدتنى أثأر لنفسى منهم فى صورة الطفل الوحيد الذى تجرأ على السؤال. عينان تبتلعان الوجه النحيل وسؤال يائس على وشك الصمت. سوف يعود إلى الإسكندرية وسوف تتلقاه أمه ولن يسألها إذا كانت تعرف أن حجر رشيد ليس فى رشيد ولكنه فى متحف فى لندن. وحتى إذا سألها، فسوف تقول: نعم أعرف، ثم أسرعت بالتعليق على اتساخ الحذاء. وربما

قالت: والله؟ ثم تسرع بالتعليق على اتساخ الحذاء. كم من الإجابات نجهل؟ تذكرت أولادى عندما كانوا أطفالاً والأصغر ينظر إلى الأكبر مبهوراً وهو يجيبه من وراء الأطلس الكبير:

– «إلبا» تبعد عن رشيد بألف وثلاثمائة وستة وأربعين ميل بحرى.

والصغير يسأل – يعنى أيه ميل بحرى؟

– واحد وثمانية وثمانين من عشرة كيلو متر.

يستدير الصغير إلىّ فى تلقائية تنمّ عن حَدْسه أن أخاه لن يفيده أكثر من هذا:

– يعنى أيه «نفى نابليون إلى سانت هيلينا»؟ ثم قبل أن أستجمع مفردات معقولة للردّ:

– فين حجر رشيد؟

لو لم تكن صناعة الحياة هي صياغة الأسئلة فماذا تكون؟

قطعت رحلة العودة إلى الإسكندرية ووصلت جراج بيتنا فتداعى إلى صوت الحاج حسن السايس الوقور،

يقول لمحدثه فى ثقة وتؤدة:

- ليس على المسلم حرج.

ما إن هممت بالنزول من السيارة حتى وجدتنى وجها لوجه مع طفل المتحف. التقت عينانا فجرى يختبئ خلف فترينة الحلوى فى أقصى الجراج. ولم أتركه لحاله، خطوت نحو الفترينة التى يرتزق منها الحاج حسن فى خط مستقيم ووقفت أحملق فى الصغير من علياء طولى، أستلهم من استجابته مدخلا للحديث وهو يرفع عينيه فى حذر وينكمش ثم ينظر خلفه فيتأكد ألا فرار. الحائط من ورائه وعلى يمينه ضلفة الفترينة وعن يساره وقفت أنا وقد تبدل داخلى فى لحظة من كيان حام يمتد بدفء الوعد إلى شىء مخيف ومهدد. لقد تسبب فزعه فى أن تنامى مرة أخرى نفس الحس بالقسوة التي أجبته بها عن مكان الحجر ونحن فى المتحف. عدت أدراجى أفتش حقيبتى أبحث عن المفاتيح.



عندما كان أولادى صغارا كنت أعتقد أنى لا أحيا الحياة إلا لأرويها لهم قبل النوم. وعندما كبروا على حكاية

قبل النوم بدأت أكتب قصصاً أتوجه فيها إليهم بالكلام وكان أصدقائى ممن تصوروا أننى أكتب للكبار يقولون إن لى حساً تربوياً متعالياً يفسد القصص. لماذا ظللت أكتب وقد كبر الأطفال على القصص؟ لماذا يصر الناس على أن الورود أساسية فى إشاعة البهجة على الحفل؟ وبعد الحفل؟ تتسلل الديدان إلى الورود تذبلها. من أين جاءتنى تلك الصورة البشعة؟ ومن قائل الأبيات: «حبيبتى مثل وردة حمراء حمراء؟ هل كنت أحيا حتى الآن لو كانت لى ذاكرة حديدية حافظة تعيد الرد على كل الأسئلة المتكررة بنفس الدقة كل مرة؟ وكيف أحيا الآن ولا أستطيع أن أقول حتى للأصغر وأنا متأكدة من انصياعه «هيا بنا إلى المكتبة افتح الموسوعة البريطانية، المجلد ١٩ حرف الراء فنقرأ وأعيننا تلمع كأننا وقعنا على كنز ثمين:

روزيتا:

– قبطى: رشيت. عربى: رشيد

بلدة تقع على الفرع الغربى للنيل أو «فم» روزيتا على الضفة الغربية. أسماها الأغريق بوليبتين. عندما تملحت

قناة الإسكندرية وفـروع أخـرى ازدهرت روزيتـا مـثل مينائها الأخت داميتا على الفرع الشرقى، كان طريق التجارة الرئيس بالبر إلى الهند يمر بها حتى حفر محمد على قناة جديدة ربطت الإسكندرية بالنيل. لقد أصاب روزيتا الآن كثير من العطب. يربطها بالإسكندرية خط سكة حديد. حجر روزيتا الشهير الذى وفر مفتاحاً لفك شفرة آثار مصر القديمة وجد بجانب قلعة سان جوليان، أربعة أميال شمال البلدة فى عام ١٧٩٩، وجده بوشار ضابط فرنسى. والحجر مصنوع من البازلت على هيئة بلاطة حجرية محفور عليها بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، قرار من الكهنة المجتمعين فى منف بمؤازرة بطليموس أبيفانيس. وقد سلم الحجر للإنجليز عند استسلام الإسكندرية (١٨٠١) ويوجد الآن بالمتحف البريطانى .

عندما فتحت المجلد العتيق، وجدت أننى كنت هنا من قبل، تحت قلعة سان جوليان خط ومثله تحت استسلام الأسكندرية.

وفى نفس الصفحة ورقة كتبت بخط طفولى:

ذهبنا إلى رشـيد فى رحلة مـدرسـيـة وزرنا المتـحف ورأينا كيف كان الناس يأكلون السمك.

زمّار هاملين

عندما يعلمونك الإنجليزية فى سن صغيرة يحكون لك عن زمار هاملين. أحمد زميل دراستى كان يحب الزمار. أما أنا فكنت أحب الطفل الوحيد الذى لم يتبع الزمار وبالتالى لم يختف فى المغارة مع بقية أطفال هاملين، ولم يكن ذلك لأنه قدر على مقاومة أنغام الزمار السحرية بل لأنه كان أعرج ولذا كان أبطأ من الآخرين فكانت له النجاة من مصيرهم المجهول.

كان أحمد يحب الزمار وكنت أنا أحب الصبى، وكنا لما نتشاجر أتهمه من ذكرى تلك الحكاية:

– يا قاسى يا شرير يا أنانى.

فيرد:

– يا عارجه!

كان هذا يؤلمنى جداً لأنى كنت «عارجه» بالفعل ولازلت، أما أحمد فلم يكن شريرا أو قاسيا فى نظرى.

كان يحب الحيوانات ويطعم القطط فى الشارع أمام منزلهم ويستحثنى ونحن فى طريق العودة من المدرسة أن أحمل صغار القطط إذا كانت هناك صغار للقطط. لكني كنت أخاف المزيد من المرض فقد كان بى منه ما يكفينى. ميكروب صغير لا يرى كان قادرا على شلّى فما بالنا بما تستطيع فعله قطط الشوارع. وكان أحمد يتفهم ويغضب أيما غضب لو أنه لمح فقط فى عينى مدرس أو تلميذ استياء من مشيتى البطيئة الثقيلة المشوهة. لكل فرقة بطل وكان أحمد بطل فرقتنا. هو الذى يتمرد على أوامر المدرسين عندما تكون فى غير صالحنا، وهو الذى يدافع عن الذين لا يعملون واجباتهم. وعندما أذكر مواقفه أذكر كذلك أنه كان وحيدا فيها. لم يكن يؤازره أحد أو يأخذ صفه أحد فقد كان المدرسون يكرهونه وكان دائما يحاسب بأكثر مما ارتكب من ذنب، لو أنه هو الذى نسى كراسا أو كتابا أو هو الذى تأخر عن الفصل. فى معظم الأحيان كان أحمد يسمع الدرس وهو واقف فى الركن. وكانت تلك هى طريقة التأديب المتبعة فى مدرستنا. ولأنه

كان يقضى معظم وقته واقفا كان كثيرا ما لا يستطيع ملء كراساته بالمطلوب، ساعتها كنت أساعده، أحيانا على الرغم من رفضه واستعلائه، ولم أكن أفهم لماذا كان يرفض المساعدة.

ترك أحمد مدرستنا بعد المرحلة الابتدائية لكنا بقينا على اتصال فقد كان منزلهم يقابل بيتنا، وكانت أمهاتنا تتزاور من حين إلى حين.

فى يوم جاءت أمه إلينا وسألتها إذا كان من الممكن أن تتصل بأحمد فيحضر. وكأنها كانت تنتظر الدعوة، فلبت اقتراحى في الحال وجاء أحمد.

فى الصف الثانى الإعدادى كان علينا قراءة رواية «جين آير» لشارلوت برونتى. كنت شغوفة «بجين» معجبة بحصافتها وحسن إدراكها وذكائها العملى، ربما أيضاً أحببتها لأن شارلوت برونتى وصفتها بأنها تفتقر إلى الجمال. كانت ملامحها عادية وكان ذلك كافيا لطمأنة قلبى أن هناك من يدرك أن المظهر فى حقيقة الأمر لا يهم، لكن ذلك كان أيضاً قبل أن أقع على مرتفعات وذرنج

وأفهم معنى مروج كاثرين برونتى الموحلة.

باختصار قبل أن أدرك أن مظهرى ما كان يضمن لى محبة من حولى، ولربما أمى ذاتها كانت تحبنى على مضض من باب الواجب.

مكثنا قرب الساعة أنا وأحمد متجاورين لا نتحدث تقريبا وكأنه أبدا لم يساعدنى في ربط حذائى الضخم القبيح وكأنى أبدا لم أصر على تقليد خطه حتى لا تعلم المدرسة أن غيره قام بنقل الدرس. رحت أنظر إلى حذائى أستلهم منه ذكرى أصل بها حديثى مع أحمد ولما يئست استجمعت شجاعتى وأريته الكتاب وكان الغلاف جميلا لامعا. عندما رأيت الاهتمام يبدأ فى غزو ملامحه فتحت الكتاب على الفصل الذى تموت فيه صديقة «جين» من السل فى مدرسة القرن التاسع عشر. وقرأت له المشهد بتأن فما كان منه إلا أن وقف فى منتصف الغرفة وراح يفتعل التقيؤ. ولم أضحك. شعرت ربما بما يشعر به الصبى الأعرج كل مرة تحكى فيها حكاية زمار هاملين. كنت أود لو قلت لأحمد كيف أفهمنى ذلك المشهد سبب

حبه للزمار. كنت أود لو قلت له إنى أحبه، لأنه مثل الزمار عادل وصارم وصادق، وكانت تلك الصفات تبهرنى فقد كانت تلك القائمة فى ذهنى تعنى أيضاً أن العادلين الصارمين الصادقين لا يهتمون بالمظاهر. ربما قلت شيئاً من هذا لأنى لازلت أحيانا أسمع صدى غضبته: أنت شريرة لقد خلص الزمار هاملين من الأطفال. وكرر، من الأطفال! طبعا أنت تحبين الزمار لأنه لم يأخذ معه الصبى القبيح الأعرج. يا عارجه! وخرج ولم أره بعدها سوى في أحلامى.

زمار هاملين خلص القرية من الجرذان التى كانت تقضى على الأخضر واليابس، وتوحشت حتى صارت تأكل الرضيع فى مهده والطفل فى أحضان أمه. عمدة هاملين كان قد وعد الزمار الغريب بخمسة أكياس من الذهب لو خلص هاملين من الرعب والجوع. وقبل الزمار القدير الصفقة، وعندما حان وقت الدفع لم يكن فى خزانة هاملين خمسة أكياس من الذهب. حاول العمدة مماطلة الزمار. وفى النهاية هدده الزمار أنه لو لم يدفع له

الخمسة أكياس التي وعده بها، سوف يذهب بالأطفال بسحر مزماره كما ذهب بالجرذان من قبل فغرقت كلها. لم يصدق العمدة ولم يقم بالجهد الواجب فى تحصيل الأموال للزمار. وبالفعل نفذ الزمار تهديده وكان يعلم أن لكل ظرف تطهير نغمة. فى الليل وبعد أن آوى كل الأطفال للفراش أخرج الزمار مزماره وراح يلعب نغمة تطهير هاملين من الأطفال. وتسرب الأطفال من مخادعهم واحدا وواحدة تلو الآخر والأخرى ومشوا وراء الزمار الذى قادهم فى درب ملتو، حتى وصلوا إلى المغارة التى أغلق بابها من دون الصبى الأعرج. كان على هذا المسكين الذى وقف ينظر وأصحابه جميعا يذهبون إلى المجهول، يحول دونه ودونهم جبل عظيم أصم، كان عليه أن يبتلع خوفه وعدم فهمه وغضبه على عرجه وحسرته أنه لم يستطع اللحاق بهم. وكأن هذا وحده لا يكفى لتحطيم قلبه الصغير، فكان عليه أن يعود ليروى لأهله وآباء وأمهات الأطفال الذين ذهبوا كيف رأى أطفالهم يغوصون فى قلب الجبل، وكيف أغلق عليهم مدخل المغارة العجيبة وعاد

الجبل بلا مدخل ولا طريق. كيف عاش هذا الصبى وحده بين أناس فقدوا أطفالهم، وكم من المرات رأى الحسرة فى عين أم ودت لو كان هذا الأعرج القبيح هو الذى غاب وعاد بدلا منه ابنها أو بنتها وماذا كان مصير عمدة هاملين.

أحد لايعلم فقد كانت الحكاية تنتهي دائماً بوقوف الصبى الأعرج داهشاً أمام الجبل وبصوت أحمد يتهمنى: يا عارجه يا شريرة.

# اللوز الأخضر

«الرجل الذى مات» قصة كتبها الإنجليزى ديفيد هربرت لورنس وهو ذاته الذى كتب «عشيق الليدى تشاترلى» ولذا لم يعد أحد يذكر الأولى المستوحاة من هرطقة شهيرة منيت بها الكنيسة المصرية فى القرن الثالث. قال المهرطق: إن الرجل لم يمت فأضاف لورنس أنه ليس فقط لم يمت، وإنما نزل أرز لبنان بعد كدّ ومعاناة على قدميه الجريحتين فتلقته كاهنة إيزيس فى معبدها، وضمدت جراحه وغسلته بماء النبع السلسال، ودهنت جسده الكليل بزيوتها وبلسمها، أطعمته بيدها عنباً ولوزاً، وأشربته نبيذ الآلهة وألبسته كتاناً طهوراً معتقا برائحة بخور قدس الأقداس. انتظرته وصلت من أجله حتى أفاق بين فخذيها وهى تهدهده وتمسح على شعره، يروح ويجىء كالبحر فى يوم هادئ على شاطئ دافئ فى مقتبل الصيف. كان ثديها فى فمه بين الحين

والحين، يلقمه رحيقا من عسل ولبن وعندما تمر يدها المرتعشة حنانا على شعره، كانت عيناها تفيضان وتنحسران ملتمعتين مع وقع روحه ومجيئه داخلها، يأخذ الأنفاس ويرسلها فى حركة أبدية.

لطيف أن يتخيل كاتب لحظة كهذه لا تنتهى، لأن الكاتب وحده دوننا جميعا يجد نفسه ملزماً بأن يعطى فكرته شكلا يدخلها فى حيز الزمن من واعز الحفاظ عليها كى لا تموت. وهو على عكس الحالمين الذين اعتقدوا دائما أن فى الموت حياة، يقحم فكرته على عالم الوجود إقحاما، وبنرجسية فائقة. فإذا ما راح الناس يستهلكونها، أصبحت واقعا (وهو ما كان شيئا آخر غير الحقيقة حتى وقت قريب). وهكذا يعود الكاتب مرة أخرى إلى البدايات يكرر المحاولة، ولذا قالوا: لا جديد تحت الشمس ولكنهم أيضاً قالوا: إنك لا تزل نفس النهر مرتين، وفى الحالتين هم على صواب. أما الكاتبات فلم نسمع منهن مثل هذا إلا على استحياء وربما على خوف من أن يتهمن بتعاطى الفلسفة مثلما اتهمن بتعاطى

السحر فى القرون الوسيطة، وكلاهما لا يليق بإنسان القرن العشرين رجلا كان أم امرأة. ولذا فهن يتوخين الحذر خاصة وأن الحقيقة والواقع أصبحا عند نهاية هذا القرن مترادفين على نحو صحى، يوحى بأن الإنسانية قد أزاحت عنها أواهامها الماضية، وأصبحت من الشجاعة الكافية بحيث تستطيع النظر إلى وضعها دون زيف أو رياء: الإنسان حيوان؟!

كانت تلك هى ذاتها أفكار كاهن يهودى فى رحلة معاكسة لرحلة ذلك الذى حل على معبد إيزيس فى طريقه إلى أرض التوراة متباركاً، ولكن السبت نزل عليه فى غفلة فقد ظن أن المسافة بين بيروت وأورشليم تقطع فى ستة أيام على ظهر البغل لكن السبت نزل فى اليوم الخامس واضطر أن يعقل بغلته ويجلس ينتظر. لم يكن داخلا المعبد بالطبع، ولم يكن بوسعه ألا يطل من كوة فى الجدار كذلك، وحب الاستطلاع فى مثل هذه الحال ذنب مغفور. كان يبحث عن حنية فى الجدار تقيه برد الربيع الليلى بما أن شرع الله يقضى ألا يشعل ناراً بعد نزول شمس

الجمعة. واكتشف الكوة ومنها رأى ما رأى. فى البداية راوغته عيناه ولم يسجل ذهنه الصورة على نحو واضح يشفيه. فقط باغته شعور مبهم أن فى الأمر حراماً، ثم غمره هذا الجماع الذى اتضح له بعد قليل على حقيقته: كلبان يمارسان الحياة السفلى بلا رادع ولا خشية. لا يتخذان لأنفسهما مأوى يسترهما عن أعين البشر، كلبان يريدان لكل الناس أن يصيروا حيوانات مثلهما. لكن ما العمل والسبت نزل والظلام وهما لا يكفان؟ هو لا يستطيع المضى ولا يستطيع تفريقهما دون أن يكسر السبت. نظر إلى بغلته فى غل وحسرة يحملها ثقل ورطته.

ظريف أن يستطيع المرء الانتقام من كل اليهود فى صورة كاهن نزل الأرز منذ أكثر من ألف وتسعمائة عام، فيحكم حوله طلسما من الكلمات تجمده فى لحظة الورطة ويجلس من هذا البعد المريح يتلذذ بعذاب هذا الممثل التعيس لبنى أمته. ولكن لكل حكاية نهاية لابد ولو مؤقتة. ولذا فإن الكاهن أغمض عينيه وراح يتزلف إلى النوم وعندما يئس فتحهما وأخذ يعد النجوم. نجوم تلك الليلة

كانت أكثر من علمه بالأعداد. أخيراً غلبه نعاس قصير قبيل الفجر استسلم له وقد فرغ ذهنه. لما بزغت شمس اليوم التالى ولامس ضوؤها عينيه أفاق على بلل بين فخذيه، فراح يزيل سرواله ويهرع نحو الجدول البارد يغسله فى غضب خزيان وعاد لينشره فوق بردعة البغلة. ولكن انهماكه فى الغسيل ونشاط خطوته من جدار المعبد إلى الجدول، ثم من الجدول وحتى الشجرة التي ربط بها البغلة لم يكن كافياً لامتصاص الغضب الذى كان يرتع فى كيانه ويحول أنفاسه إلى أبخرة أنهار تغلى. كلبان حقيران يتسببان فى كل هذا الحرج لرجل، دين مثله؟ لابد أن يدفعا الثمن. ذهب ينظر من الكوة التى كان يحملق فيها الليلة الماضية فوجدهما قد صحيا لتوهما من النوم. كانا يبتسمان بأعين تفيض حنانا مقيتا لا يليق وهذا الانتهاك للمحرمات. بعد قليل راحت المرأة تغسل الرجل وتجففه ثم فعل بها هو نفس الشيء. لم يعد ما يشغل ذهن الكاهن فى كل هذا ما يفعل الرجل بالمرأة وما تفعل هى به. لم يعد يشغل ذهنه سوى القدر الذى حوى الماء.

القـدر يروح ويجىء ويفـرغ ويملأ وهـمـا مـتلهـيـان فى شـعـائرهـمـا البطيئة. مـا إن يفرغا حـتى يعاودا. لكنه تلك المرة كـان على حـذر وكان وعـيـه أقـوى من شـهـوة نفسـه وضـعـفـهـا فلم يجـراه وراءهـمـا يلهث ويبلل سـرواله. كـان مركزاً كل كيانه على الإناء.

كـان اليـوم هو الثـالث عشـر من آذار وكـان قد مـضـى عليه لدى معبد إيزيس أكثر من ثلاثة أيام، وساكنا المعبد لا يدريان بالحنق المتصاعد الذى ينفثه رجل استولت عليه شـهـوة مـجنونـة عـاهد نفسـه وربه ألا يبـرح المكان حـتى يطفـئـهـا. كل مـا كـان يعـوزه هو قـدر فـقط. إناء مـثل هذا الذى لا يبـارحـهـمـا إلا ليفـرغ، لا يعلم كـيف، ويعـاد ملؤه ويسـخن ماؤه لا يعلم بفعل من؟!

هذا الإناء سـيـصـبـح عـصـى مـوسـى. هـذا الإناء سـيـفـرق الكلبين ويمـضـى هو للاحـتـفـال فى أورشليـم بعيـد «اسـتـر» غدا أو بعد غد. لن يضيره ساعتها أنه لم يبدأ الصوم فى أورشليم. مـضـى يومـه يراقبـهـمـا ويفـعل بهـمـا فى خـيـاله مـا فعل مـوردخـاى بأعـداء اليـهـود ومـثل مـوردخـاى لن يلمس

غنيمته منهما ترفعا وكبرياء فبدأ صومه على الفور. وعندما كانت المرأة تنقع حبات اللوز الأخضر فى ماء زهر البرتقال ورحيق العسل، لا تتحرك شهوته للطعام. وكان الرجل ينثر العود والعنبر على فحم المبخرة ولا يتحرك وجدانه للصلاة. وكان وهو يشاهدهما ينسى كم من الوقت مر، وكم مرة غابت الشمس وبزغت. نسى عيد «أستر» ونسى أنه نذر صوم ثلاثة أيام، ولم يدر حين أفطر على فطيرة كادت تفسد فى جرابه إن كان هذا هو الخامس عشر أم السادس عشر من آذار. لكنه لم يعد يهتم بالعيد فقط بالقدر.

ذات ليلة فاز بها. كان حلما رؤيويا ألهمه الرب المنتقم مباشرة. بل حدثه بصوته. وصف له الباب الخلفى والدهليز المعتم القصير ومكان الأوانى والقدور وهيأ له لحظة الانتقام. لحظة أوج التحامهما. يملأ القدر ماء باردا من الجدول ويدخل عليهما فى حركتهما البطيئة المطمئنة الدافئة ويسكب عليهما الماء البارد كما يفعل الناس بكلاب الشوارع التي لا تستحق الرجم. سيذعران وينزل عليهما

الخزى والعار وسوف تتبدى لهما عوراتهما الواحد أمام الآخر وسيكره كل منهما صاحبه، ويبغضه وستلومه ويلومها. عندها يتركهما ولا يمس قيد أنملة من مغانم المعبد، ولا حتى اللوز الأخضر الذى كان يحبه كثيرا.

جميل أن يستطيع المرء تخيل أوهام الآخرين.

هكذا أيضاً منَّى الرجل نفسه، وتأكد بعد رؤاه أنه نفذ إلى عقل ضحيته وأنه فهم ووعى تماما مقدار الخسة والضعة التى لا تستولى إلا على من لا شرع له. راح يتلمس طريق الحلم متمتما: «الشرع.. الشرع هو العاصم الوحيد». لما وصل الباب الذى رآه فى الحلم وجده مواربا ودخل. فى مواجهته كان الدهليز الضيق المعتم. خطا داخله خطوتين، بعدها انفرج الظلام عن بهو صغير تضيئه شموع لا تحصى، رائحته زكية. ورأى القدور وبين القدور وقفت المرأة فى كتانها الأبيض شعرها فاحم يحيط رأسها فى جدائل قصيرة بالكاد تلمس كتفيها. وجد نفسه محتوى تماما في نظرتها المتألة فلم ير راحة يدها وهى تمتد له باللوز الأخضر.

كان لطيفا أن تنتهى القصة هنا، ولكن كيف يضمن المرء أن القارئة سوف تفعل فى الخيال فعل التبديل والإحلال البسيط المرغوب، كأن تستبدل بالسبت الأحد أو الجمعة، ثم تتأمل نفسها بدلا من أن تشمت فى الكاهن الوثنى؟

# شرع ربنا

متى جاء (على) إلى القاهرة وسمعته يتفاخر:

- نسبة التعليم فى «صفنية» ١٠٠٪. كُلاّتهم أولاد وبنات راح يتخرجوا من الجامعة. ولم يتخرجوا «كلاتهم» بالطبع، ولكن دون الذين تخرجوا لم يعد سوى (على). كان يحب أطلال بنى حسن ويعشق سيرة تل العمارنة. يحكى عنها بشغف الرغبة فى تجدد الجمال التام. وكنا نضحك من رومانسيته ونذكره بنهاية أخناتون المشئومة، وأن الكهنة دائماً يكسبون الجولة الأخيرة. ولكن ظلت على لسانه الملكة تجىء وتمشى أمامنا فى رشاقة وخفة، رائحة عطرها الذكية تصلنا بجمال الكحل فى عينيها وتتلمس أنفاسنا نعومة كتان فستانها الأبيض وأزهار اللوتس والكلّة فى يديها: أزهار بلا رائحة.



تبدلت الآن حكاية «على» وأخذ رع سنب مكان نفرتيتى فى خياله. أفق التاريخ الرحب لبّدته غيوم الماضى

القريب ولبس «على» منظار الحكمة، وتحنطت كلماته فلم يعد يذكر إلا شكاوى القدماء ونبوءاتهم:

«انظر! الكاتب يجلس فى مكتبه ولكن يديه لا تعملان شيئا!».

مر يومان. عندما جاءت ياسمين تصورت أن معها بعض أخباره، لكن ياسمين اتجهت رأسا إلى المطبخ، حيث كانت عزيزة تعد القرص «للقرافة». اليوم سنوية أم عزيزة، خالة «على» وجدة ياسمين.

فى طريقى إلى التكعيبة التي نزرع تحتها الخضر مررت عامدة بالمطبخ فقد خيل إلىّ أن ياسمين وعزيزة تتهامسان والتقطت نهاية الحديث الذى لم أسمع بدايته:

– «الإرهاب نايمة فى الترب»

استدارت عزيزة ورمقتنى بنظرة حيرى تقاوم انسكاب الدمع الذى راح يتجمع بسرعة على المقلتين ودهشت. لم أر عزيزة تبكى يوم وفاة أمها، أتبكيها اليوم؟ فقلت أواسيها:

– بكرة نطلع.

تنهدت فانسكب الدمع وتمتمت فى استسلام:

- بكرة؟

جاءت رغم كل شىء. القارب مقسوم اثنين. تشد الملاءة فى الوسط بطوله وتثبت فى المقدمة والمؤخرة. الحريم فى ناحية والرجال فى ناحية. شرع ربنا. قالت وكأنها تتعرف على شرع ربها أول مرة. لكنها جاءت. ركبت المعدية بعد أن كف الرصاص. وبادرتنى أول ما دخلت:

- «مافيش نفر فى الغيط الأمهات يطفحوا الدم لكن الشباب لأ الواد عيد اتهبل لو أمه مشيت فى البيت (يجوله) حرام».

بعد عصر ذات اليوم جاءت الشيخة حسنة متشحة بسواد يلفها كلها، حتى أن عينيها بالكاد تبينان. قمنا بواجب الضيافة أنا وعزيزة ولم أنتبه أنها تلقى الدرس الذى تختص به تجمعات العزاء إلا عندما وصلت فى حكايتها إلى الثعبان العظيم الذى يظهر للميت فى قبره المظلم، وكدت أنهيها لولا نظرة في عين عزيزة ظننتها

نظرة عدم اعتراض، فسكت وقد انتابنى قلق مبهم على «على».

كان على هو الآخر يحلو له أن يقص علينا قصة الوحش الرابض فى محاكمة أوزوريس. من «خفت موازينه» لا يلقى بقلبه إلى الوحش يأكله وتشهد «معات» ربة العدالة نفسها على صدقه، ويأخذه أوزوريس معه هناك حيث النهار الدائم. كان «على» يدربنى على القسم العظيم ويذكرنى ألا أتهاون فى حمل جعران القلب حتى لا يفشى قلبى كل أسراره فى المحاكمة: «أنا لم أكذب، لم أتسبب فى بكاء أحد. لم ألوِّث ماء النيل ولم أحرم الرضيع من لبن أمه» وكان يقسم معى. كنا بالفعل نؤمن.

أفقت من ذكرى «على» على ياسمين وعزيزة تبكيان بحرقة وعزيزة تقول من بين دموعها:

«احنا طول عمرنا مسلمين! طول عمرنا مسلمين!»

التفتت إلى حسنة، وجدتها تتسلل إلى الباب فأخذت ياسمين فى حضنى وجلسنا سويا نقرأ (سورة النور) حتى هدأت، وعزيزة واقفة تنظر ودموعها تنسال فى

صمت.

تلك الليلة أيضاً لم يعد «على» وجلست فى الشرفة البحرية أنتظر. كم كان هذا المكان جميلاً يوماً يحمل بشارة الأمل. وكيف تحولت لغته الناعسة الممطوطة إلى طلقات مرقومة بالفزع:

المعدية مقسومة اثنين. البوليس فتحوا النار على الإرهاب والإرهاب يردوا عليهم. على وأمه ينفصلان لتعدية النهر. شرع ربنا. ناحية للحريم وناحية للرجال.

# أنا وأمينة

أسمونى كيمى لسبب أجهله، وكان ذلك يؤرقنى لأنه
كثيراً ما جلب على الشقاء التام، حتى أنى فى يوم كدت
أن أقتل نفسى لولا مكالمة من أخى، قال فيها بدون داع
واضح: إن الناس لا يقدمون على الانتحار إلا فى اللحظة
التي تسبق انفراج اليأس بالضبط. ضحكت وتبدلت
كيمياء الدماغ كما هو معروف بسبب الضحك، وعدت
أدراجى أتذكر، لماذا كدت أقدم على قتل نفسى لكنى كنت
بالفعل قد نسيت. أتذكر فقط خاطرا مرَّ بى لحظة أن
ضحكت وهو أنى لابد وأن أكون اثنتين لا واحدة. فحتى
أقدم على قتلى لابد أن يكون هناك قاتل ومقتول. قاتلة
ومقتولة. على دائماً تذكر هذا. أنا أنثى أكيد وإلا اسمونى
كيمو ربما، وبالتربية وإلا.. ما خفت أن أكتب القصص مع
أنها كل ما أحب عمله فى الحياة إلى جانب شىء أو ثلاثة
أُخر. فى القصص على المرء دائماً قول الحقيقة. أنا

أخاف ليس لأن هناك ما يشين فى الحقيقة، ما يشين هو فى الواقع. أخاف لأنى لو قلت الحقيقة سوف أتهم بالكذب. ليس هذا من صنع خيالى. حدث وعن تلك التجربة تولد الشعور بالخوف، لكنى أكتب رغما عن التجربة ورغما عن الواقع ولذا أخاف قول الحقيقة، ولكن شىء ما يجذبنى إلى القول لا أعرف له وصفا، فى نهايته أجلس منصاعة وأكتب.

تلك التي كانت سوف تقتلنى أعرفها عن كثب. كنا نذهب معا إلى نفس المدرسة. نوتر دام دى زآبوتر في الزيتون. ومع أن اسمها كان أمينة وهو اسم كنت أحسدها عليه، إلا أنها لم تكن تقاوم الصلاة فى كنيسة المدرسة ثلاث مرات يومياً. كانت هي فى القسم الداخلى وكنت أنا أعود إلى بيتنا بعد انتهاء الدراسة. أمينة لم تكن ترى أبويها إلا فى العطلات. وأنا كذلك مع الفارق أننا كنا نعيش فى نفس البيت، وأحيانا غير قليلة كانت تجمعنا سفرة الغداء. انتقلنا إلى الإسكندرية، وكذلك أمينة، بطبيعة الحال، لسبب لم أسأل عنه ولم يشغلنى.

ذهبنا أنا وأمينة فى الأسكندرية، كذلك إلى نفس المدرسة وعانينا نفس الصدمة. كانت الراهبات اللواتى كنا نقل لهن «ماسور» وأعيننا فى الأرض، فى منتهى الصرامة، وبالذات فيما يتعلق بمادة القراءة وأجسادنا. كما أنهن كن يفرضن رقابة غاشمة على خطاباتنا ويقرأن يومياتنا إذا ما تسنى لهن ذلك، حتى أنى كبرت وكبر معى نصف خاطر، يقول: إن هناك علاقة طردية ما بين القراءة والكتابة والجنس. هذا مع العلم أنهن كن يحرصن على الإكثار من استعمال كلمة «الخصوصية»، حتى وهن يطلبن منا قراءة خطاباتنا أو اليوميات - إذا ضبطنها - بصوت عال أمام المير سوبيريور. أعلى سلطة فى المكان. كان ذلك يسعد أمى كثيرا، وكانت أمى من تلميذات راهبات الزيتون النجيبات وظلت تزورهن فترة طويلة إلى أن عهدت بى لهن. •

المهم هو النقلة الثقافية التى واجهناها أنا وأمينة، عندما غيرنا مدرستنا وأصبحنا تلميذات كلية النصر للبنات فى الإسكندرية، والتى كان اسمها قبل تأميم

التعليم «أنجلش جيرلز كوليدج». فجأة انقلبت الأوضاع. صرنا نتعلم العربية ونقرأ القرآن. وبدأ أسمى الذى كان مدعاة للتفكه ونادرة لكل من يريد الاستظراف تزول عنه فيما يبدو قدرته على الإضحاك والتندر. أحيانا كنت أسأل: «اسمك مصر؟ هكذا.. وكنت أرد ببساطة: «نعم هاك اسمى». ويمضى اليوم. بعدها تبدل الحال مرة أخرى فيما يخص اسمى، لكن تلك حكاية أخرى.

فى الإسكندرية كان كل شىء مباحاً. مباح نسبيا بالطبع وكانت الرياضة ولا سيما السباحة ولعب الهوكى وكرة اليد أنشطة فى منتهى الجدية والاحترام. لا نذكر أنا وأمينة سوى مرة واحدة كانت فيها الأنوثة موضع حرص خاص. أعنى العذرية. لكنه حديث مر سريعاً واختفت الفتاة التى أثارته، وعرفنا أنها تزوجت وكانت فى عمرنا ونسينا الفضيحة أو تناسيناها، حتى نثبت للكبار أننا أكبر من مثل ذاك الزلل. ولكن مع قدوم الصيف على شاطئ المنتزه، وامتلاكنا أول مايوه بيكينى ثار فى نفسينا زهو خاص بالجسد، وعرفنا أن أجسادنا مرغوبة في حد

ذاتها، ولكننا لم نكن نعرف أن بنا نحن أيضاً رغبة فى أجساد آخرين. كانت رغبتنا وحتى تلك اللحظة التي سبقت ظهور عبد الحميد فى حياتنا، رغبة ميتافيزيقية محضة من السهل الانحراف بها يمينا أو يساراً، ولكننا وبكل تأكيد صار لنا شيء يخضع لقانون العرض والطلب لأول مرة. وهكذا بدأ بيننا التنافس على السوق. كان سوقاً صغيراً نسبياً، ولم يكن هناك متنافسات أخريات يستوجب وجودهن الدهاء والحيطة أو الحذر. وهكذا فقدت صداقة أمينة وكسبت الجولة. كان الأمر فى منتهى المشقة على نفسى بالطبع. فأمينة إنسانة مسالمة بطبعها لا تقوى على ذبح فرخة، ولكنها تدعى العكس لتحمى نفسها من شبهة الضعف وما يترتب عليها. أمينة كانت حتى ذلك الصيف، وربما حتى الآن فى منتهى الرومانسية، ولكنها والحق يقال قاومت باستبسال ولا أدرى إذا كان ذلك بسبب فكرتها المغلوطة عن نفسها، وظنها أنها بطلة فى رواية عن القرون الوسطى وما إلى ذلك، أم أنها كانت بالفعل تحب الفتى الوسيم ذا العينين الأخاذتين، الذى

كان مجرد سماع صوته المعدنى الأخنف يميتنى من السأم. وقتها وبالرغم من تأوهاتها على أغانى عبد الحليم، التى كانت تستثير بها شفقة مقززة على نفسها وعلى الملأ، كنت أعتقد أن أمينة مثلى تعرف قواعد اللعب، وأننا نلعب لنتسلى ونملأ فراغات الملل، ولكنى سرعان ما خذلت فيها، فقد تكشف لى أنها تعنى كل حرف تقوله وتشعر تماما وبكل كيانها بكل حركة تأتى بها. بالتالى كانت تبدو لى -على الأقل- كتلة من الزيف. كان هذا هو الخاطر الذى شجعنى آنذاك على الاستمرار فى اللعبة القذرة. فقد ظننتنا أندادا وأنها تعلم مثلى أن الزواج يبرم لأسباب لا علاقة لها بالحب. المهم، خطبا وكانا متكافئين فى كل شىء ولم يثرا أية زوابع أو تساؤلات، وكان ذلك يليق بكليهما. وكنت أنا أخفف عنه ملل إخلاصها التابع الأعمى من حين لآخر. كان عبد الحميد مجندا فلم يكن ينزل الإسكندرية - لو كنا محظوظتين - سوى مرة فى الأسبوع، ولما أعلنت درجة الاستعداد القصوى جاء وحكى لنا بفخر شديد أقرب إلى الهطل عن وحدته التى

كانت تعسكر فى البدرشين، وكأنه بعد كل شهور التدريب ظل يظن الحرب نزهة بين خيام القبائل يوقفها وقتما شاء ليتغنى فى عبلاه البلهاء.

لما ذهب عبد الحميد تلك المرة لم يعد، ولما علمت أمينة أنه لن يعود تزوجت من أول شاب تقدم لخطبتها، وهكذا أنهت حياتها بيدها وبكفاءة تليق وحسها للميلودراما، حتى أنها رفضت دخول الجامعة فى حركة استشهادية سخيفة ظلت تندم عليها حتى اليوم. أما أنا فدخلت الجامعة بالطبع. ومرت مياه كثيرة تحت جسر حياتى، ربما أجبرت يوما على كتابة نقاطها كى أتذكر متى وبالتحديد بدأ الناس ينادونى «مشمش» أو «موشة» إلى آخر تلك التنويعات السخيفة التى تملأ عالم الأسماء المصرية بالذات. كل ماأعجب له حين يمر أمامى شريط هذا النهر الذى جرى تحت جسر العمر أن مشهدا بعينه يكرر نفسه أمامى أينما كنت، تبدأ «تيتراته» في النزول أمام شاشات عينى كل ربيع ولا ينتهى عرضه إلا مع انتهاء كل صيف، كأنه به فقط بدأت السنين، مع أن

عمرى كان خمسة عشر عاما كاملة. فى قصر المنتزه وعلى شاطئ عايدة بالتحديد. أنا وأمينة فى البيكينى الذى سمح لنا بارتدائه لأول مرة. عبد الحميد يخرج من كابينتهم التى كانت على بعد أمتار من كابينتنا. أمى تعد العدة للشاى. الساعة السادسة وأصدقاء أمى وأبى يمرون فى تمشيتهم المعتادة من شواطئ إيزيس وكليوباترا. كان معنا على الشاى يومها أكثر من عشرة أشخاص. تفخر أمى بأعداد الضيوف وتحمد الله أنه ألهمها أن تقف ساعة بأكلمها ذلك الصباح تنتظر فى الحر خروج «السابليه» الصغير من أفران «فلوكيجر». نخرج جوعى من البحر ونتقابل وعبد الحميد وتلتقى عينانا ويحدث التعارف من خلال خاله الذى كان مدعواً على الشاى. ما إن تلحظ أمينة اهتمامى حتى تتنحى وتنشغل بكتاب كان أحدهم تركه على شلتة فى مدخل الكابينه. عندما يصل براد الشاى تنظر لى أمى تزجرنى:

«قومى البسى»، لكن أمينة هي التي تنصاع وأقف أنا مع عبد الحميد نتبادل التفاهات وعينا أمى تخترقان

كيانى من حين لآخر. كلما أوغلت فى بعث نظراتها من كرسيها البعيد زاد عنادى. كنت متململة تماما ومتوترة عن آخرى، ومع هذا لم أترك عبد الحميد إلا بعد أن ناداه خاله بحجة تعريفه على أبى. نظرت إلى أبى وكانت عيناه تطقان بشرر تلك النظرة المؤنبة الزاجرة التي ظلت مقترنة بذكراه، حتى بعد أن مات بسنوات طويلة فأذكر أمينة وحتى اليوم يحمر وجهى.

# زيارة السيدة العجوز

لم تكن السيدة العجوز عجوزاً بالفعل. ولكن لدى منتصف العمر تتساوى الشيخوخة والشباب مع بعض التأرجحات الطفيفة هنا وهناك. لم تكن السيدة عجوزا فيما يبدو حتى فى رأى الجيران، لأننى فى غير مرة رأيت فى أعين شابات جميلات لحظة حسد أو غيرة وعزوت ذلك إلى كونها مطلقة. فحيث تعيش السيدة يعتقد الناس أن الفتيات تتولد لديهن الرغبة فقط بعد الزواج لأن غشاء البكارة يحمى البنات من الانزلاق فى الرذيلة ولا يحميهن من الرذيلة بعد الزواج سوى الحمل والولادة. فإذا كبر الأولاد عاد الخطر الأول.

ولكن دعونا من هذا الذى يسهل تعميمه، ولنعد للسيدة العجوز. وليكن اسمها مثلا خديجة. وليكن بيتها بالقرب من بيتى. ولتكن خديجة ميسورة الحال. ولها أم وولدان. تتسنى لى مراقبة خديجة لأنى قررت وضعها فى بؤرة

الاهتمام، بعد أن سمعت بواب الفيلا التى تفصل بيتنا عن بيتها أنهم والعياذ بالله، أو كما قال وهو يشير إلى بيتها، يرطنون ويشربون الخمر علنا.

– وبعدين شوفى حضرتك، ماتشوفيهاش إلا لابسة البناطيل. عيب عليها دى عندها رجالة كبار.

صفعتنى كلماته فتركته دون رد ولكن من يومها أصبحت أتلصص على خديجة، وعرفت أنها ابنة رجل كان طبيبا مشهورا، وأن أمها سيدة أرستقراطية من عائلة عريقة فى الدلتا، وأنها – أى خديجة – تزوجت مرتين، وأنها تلعب التنس فى الشتاء مرتين فى الأسبوع، وتقضى الصيف فى الغردقة، وأن لها يختا صغيرا وسيارتين، ويقوم على خدمتها عدد لم أحصه من الناس.

تذهب إلى عملها فى وزارة الخارجية فى الثامنة صباحاً، وتعود وقت الغداء ولا تبرح البيت فى المساء إلا نادراً، ولم أشاهدها فى صحبة أحد غير بنيها طيلة الوقت الذى راقبتها فيه. لم يكن يبدو عليها أنها تهتم بما حولها. مرة أو مرتين رأيتها تحادث البواب، لكنى لم

أسـمع صـوتهـا بالرغم من أن صـوته هو كـان واضـحـاً تماما:

- حاضر يا ست، حاضر يا فندم.

تأكد لى أن كلامـه الذى جـعل من خـديجـة شـخـصـاً يسـتحق التلصص كان مـوجهـاً لى فـرحت أسـأل نفسـى لماذا يحدثهـا بكل هذا الأدب والاحـتـرام ويكلمنـى أنا عن البناطيل والخمر. وقـررت أن أعرف عنهـا المزيد. [illegible] ذلك من السهل فهى تحيط نفسها بسياج من [illegible] والانشغال عما يدور فى شارعنا بتبدى [illegible] بجـيـرانهـا، حـتى أنهـا لم تكن تعـرف أننى أسكن نفس الشارع الصغير يوم ذهبت أعرفها بنفسى. وكان علي ابتلاع جزء كبير من كبريائى وهى تنظر لى متسائلة فى تعالٍ:

- تشرفنا، اتفضلى، حضرتك...؟

تصافحنا وقدمت لها نفسى، وقد بدأ التصميم الذى دخلت به البيت يضمحل ويتلاشى، وكدت أقرر عدم فائدة الزيارة وأنى أضع نفسى موضع المتطفل، وأنها سوف

تستمر فى هذه اللعبة السخيفة المهذبة لأنها امرأة باردة لا يعنيها سوى نفسها، وأنهم كلهم هكذا الأغنياء من نوعيتها لا يستطيعون التواصل مع البشر إلا من خلال مصلحة ما، شيء ما يغلفهم يحصرهم فى أنفسهم التى ربما يشعرون أنها مهددة فيحيطونها بهذا السياج الكهربى غير المرئى، وكان هذا الخاطر الذى بدا لى طيبا هو ما شجعنى على الاستمرار فى مهمتى. رحت أشرح لها سبب مجيىء نصف الملفق ولم يبد عليها أنها تفهم بداية فراحت تبتاع بعض الوقت:

- تشربى إيه حضرتك؟

وفكرت، إذن هى تهتم.

- أشرب قهوة لو سمحتى.

فقامت إلى المطبخ وعادت بعد قليل بصينية عليها فنجانان من القهوة، وكوب ماء، ما إن لمس شفتى حتى أعدته مكانه فقد كان به ماء زهر. ولم تلحظ - فيما يبدو- سرعة إعادتى لكوب الماء، لأنها كانت تشعل سيجارة ولم تعرض على مثلها. فما كان منى إلا أننى فتحت حقيبة

يدى وأخرجت سجائرى أنا الأخرى وأشعلت واحدة، وأنا أرشف القهوة. كان البن جيداً، وكانت رائحته نفاذة. أعطانى ذلك فرصة أن أملأ الفراغ المتوتر الذى أحدثه عدم عزومتها على بسيجارة:

– البن ممتاز.

ابتسمت وراحت تفتح النافذة.

كان فى هذا كفايتى، وكدت ألملم أشيائى، وأتركها. كانت متباعدة فى إصرار. لم يكن صلفها خوفا من أن تقتحم. كان صلفها صلفاً فقط. طبيعة ثانية وأفلتت اللحظة التي ظننت أنها دخلت فيها دائرة الفضول. ولكن لم يكن ممكنا مادمت قد جئت ودخلت وجلست وشربت القهوة أن أتركها دون أن أفصح عن سبب زيارتى. كان لابد من تبرير ما، فبررت، ووعدتنى أن تنظر فى الأمر، ثم قامت وكان ذلك إيذانا بانتهاء المقابلة. تناوبتنى مشاعر الغيظ والحنق والثورة لكرامتى المهدرة لكنى استجمعت اللياقة اللازمة، ومددت لها يدى مصافحة:

– أنا متشكرة جداً. يا ريت نبدأ في تبادل مواعيد

رش الجنينة من النهارده. جنينتنا حتموت. مدت لى يدها وبدا شبح ابتسامة وراء العينين، وتأنسن وجهها لحظة كأنها على وشك قول شىء ما، ثم أغلق الباب بيننا.

يقال إنها - والله أعلم كانت - لها حكاية مع رجل متزوج، ولما عرف زوجها طلقها. يقال إنه كانت لها علاقات بعدد شعر رأسها.

لو افترضنا بعد هذا أن خديجة أو تلك التي اسمتها الرواية الأصلية خديجة، تكتب هى الأخرى ولو لنفسها بين الحين والآخر. وافترضنا كذلك أننا فى استطاعتنا أن نقرأ من حين لآخر ما تكتبه. ترى هل نصدقها لو أنها مثلا قالت:

بالأمس زارتنى أمينة المصرى. كانت زيارتها مفاجئة غير متوقعة. كثيرا ما رأيتها ذاهبة إلى عملها أو عائدة من زيارة مع ابنيها خالد وأشرف. كثيرا ما وددت لو كلمتها لكنها كانت تبدو دائما فى عجلة، تمشى بسرعة وتدخل عربتها بسرعة وتنطلق بسرعة. لم تكن تتخلى عن تصدير ذلك الحس بضيق الوقت والمشغولية إلا وهى

تتحدث مع البواب والجنايني. كانا يحبانها وأحياناً كنت أحسدها على قدرتها الفذة في مد تلك الجسور بينهم وبينها. كانا يحدثانها على أنها منهم وكنت أعزو ذلك إلى مهنتها. هي صحفية لها عامود ثابت في الأخبار. أمينة هي المرأة الوحيدة بخلافي التي تعمل في هذا الشارع الصغير الذي يعرف كل الناس فيه كل شيء عن بعضهم البعض. كانت أمي تستحثني أن أبدأ بزيارتها. تقول إننا متشابهتان. لكن التشابه في نظر أمي يقف عند بوابة المظاهر. نحن في نفس السن تقريباً، ولكل منا ولدان في نفس السن، كذلك وليس في حياتها هي أيضاً زوج. فلما جاءت زينب تخبرني أنها في الصالون فرحت كما كنت أفرح عندما يزور أبي أحد المشاهير ويدعونا أنا ومحمود أخي للسلام على الضيف. خرجت بسرعة لاستقبالها. أنيقة أناقة أخجلتني من مظهري غير المرتب، وما إن قدمت لي نفسها وكأن هناك من لا يعرفها على الأقل في شارعنا، حتى بدأت في شرح سبب الزيارة. كل ما فيها يوحي بالعملية الشديدة والجدية والحرص على الوقت.

كنت أعلم أننا نروى حديقتنا فى وقت لا يناسب الجميع.
الماء أصبح شحيحاً بعد أن بنوا تلك العمارات الشاهقة
وراءنا. ربما فى مكان من ذهنى تخيلت أن بقية ساكنى
الشارع سوف يخولون لها مسئولية حل هذه المشكلة. لم
تضيع وقتا فى الدخول للموضوع وخفت أنها قد تذهب
دون أن يكون فى استطاعتى أن أحتفى بها كما يجب،
كما وددت أن أحتفى. وفكرت أنى لو قمت بواجب
الضيافة لن تستطيع الرفض بسهولة ولكنها ما إن انتهت
من آخر رشفة قهوة حتى بدأت تمد يدها إلى أشيائها
تلتقطها وخفت أن أثقل عليها، أن أسقط عليها حاجتى
لصداقة ما فهى، لابد لها حياة اجتماعية شائقة دافئة مليئة
بالأذكياء والمشاهير. ما إن قمت لأفتح النافذة وقد عبق الجو
بدخان سجائرنا حتى وجدتها واقفة تستعد للذهاب. ومددت
يدى أصافحها وذهبت وذهب معها أملى فى أن نصبح
أصدقاء.

# كان في مرة

إلى رانيا عبد الرحمن

بدأ الحكي وجاء صوت رانيا:

- «كان فيه مرة وراجل».

صوتها يرتعش،. يتهدج ويبعثر نهايات العامية المصرية على شط النهر العريض. ساحرة غضبى جاءت تحمل النهر والسحب والريح والزبد ذنوب الرجال والنساء. لا تنتظر مغفرة.

- «كان فيه مرة وراجل» إلى أن يبلغ الصوت ذروة توتره: «أنا المره دى!».

لما أنهت عملها تجمعت فى الأفق دموع السحب تسكب مطراً ناعما على الكون فسكن، وهدأ كل شىء ولكن بقى صوتها رجع صدى لعالم وأدته ولم يمت: أنا المرة دى.. أنا المرة دى، من زمن موغل فى القدم.

أنوثتى لا تبرح ذهنى لحظة، أراقبها مراقبة صارمة، فلا تبين إلا من الوجه الذى يعاندنى، صورته فى المرآة

تغوينى ونرجسيتى تجذبنى نحو دوامات الرغبة المعلقة. أمام المرآة أنتظر. مرة كل شهر عندما يكتمل القمر أراها هناك. غولة شعرها محنى وأظافرها طويلة، لا يضىء ظلام الحجرة حولها سوى شمعة رفيعة على التسريحة أمام المرآة. يلمس ضوء الشمعة أطراف الأحمرار فى الشعر الطويل فيتطاير الشرر من حول وجهها وتعوى الذئاب. ترفع يدها نحو القمر تبكى وهى تمسح آثار فعلتها الشريرة. أمسح الدم والدموع بعناية من على المرآة وأمشط شعرى وأعقصه وأعود أنتظر ظهور وجه نرجسيتى العذراء.

* * *

فتحت الباب وكان الوقت متأخراً وقفت أمامى امرأة شبه عارية كانت تلبس «شورتا» ضيقا وبلوزة مفتوحة الصدر لها أكمام طويلة لاصقة. أنا أيضاً ألبس الشورت أحيانا وأرتدى بلوزات لاصقة لكنى أبدا لا أبدو عارية.الفارق بينى وبين تلك التى أراها الآن تحمل كرتونة مربعة بها حلوى فى الغالب هو الأشياء المكملة للشورت والبلوزة. تلك الأشياء

وليس الشورت والبلوزة هى سبب العرى.

وزنها أكثر من اللازم لكنها تحركه بلا أدنى وعى بالمساحة التي يحتلها وكأنه حقها المفروغ منه فى الفضاء. بشرتها تلمع وصوتها قوى مقتحم فى فمها شىء تلوكه فى حركة لدنة فتتحرك شفتاها المحددتان بروج لامع ببطء يوحى أنهما امتداد للبانة. بدا لى أنها تتعمد استفزازى، فالمتعارف عليه أن تلويك اللبان فى فم النساء فعل مستفز. أول الأمر ظننتها أجنبية: إيطالية أو يونانية مطعمة بتراخى بنات البلد، لكنها قالت فى لهجة قاهرية متعلمة:

– «أنا آسفة جدا. نسيت أن سوزان نقلت فوق».

وقفت أحملق فيها فرفعت عقيرتها بضحكة وقحة من ضحكات غوانى حسن الإمام متحدية عوالم الرغبة المكبوتة فى المحاكاة فلفظتنى إلى سراديب الغيرة والجدب والاحترام. مضت وتخيلت أنها ربما ظنت أنها أصابتنى فى مقتل.. أختى وغريمتى.. ربما.

– مدام خاندريس زوجة صاحب المراكب اليونانى

الشـــهـيـر راحت تتـملى أبى وهـى تمد له يدها بالولاعـة الديبون الذهبية، أنظر إلى أمى ولا يبدو عليها أنها تلحظ أن مدام خاندريس عارية. فستانها أسود ذو ياقة عالية، شعرها خصلات متناثرة، بشرتها لامعة وأسنانها بيضاء وراء شفتين ممتلئتين على فم واسع. حواجبها خفيفة ووجهها مستدير ممتلئ.

أمى شعرها أسود قصير. حواجبها كثيفة ومستقيمة على أنف دقيق وفكاها مربعان، فتحة بلوزتها على هيئة سبعة عميقة تصل إلى خصرها الذى شدت عليه حزاما عريضا.

فى الصباح كانت عيناها محمرتان. ونحن نشرب الشاى فى بلكونة حجرتهما فى الفندق فى أثينا وضع أبى يده فى جيب سترته وأخرج الولاعة الديبون الذهبية وأعطانى إياها:

- خذى، أنت تدخنين، أليس كذلك؟ ثم وضع يده على كتف أمى لكنها ظلت شاردة.

كانت أختى تقول:

– خانها.. خانها مع المره الـ..

يومها انتقمنا بالكتابة:

لا أذكر إلا مشهد المحاضر يقول فى صوت رخيم:

– «البنات المهذبات بالذات لو كن جميلات الوجه يذهب بهن لمدارس الراهبات».

لو كان يتحدث عنى وأختى لقال:

– «وينجحن بمجموع كبير ثم يحصلن على الماجستير والدكتوراة ويصبحن أستاذات محترمات، وهكذا نرتاح من ضرورة مراقبة سلوكهن الجنسى قبل الزواج.. أو بعده.. فكلما نما العقل وامتلأ، انكمشت أعضاء الأنوثة وضمر البظر، وإن كان ذلك قد يترتب عليه خطر أن يكففن عن مراعاة مظاهر الأنوثة فى الملبس والحركات، ولكن فى النهاية يظل هذا شرا أخف من شر كما أن تلافيه ممكن بتصدير الصور المناسبة فى الإعلام عن مظهر الأنثى المرغوبة للزواج، على أن يتبدل هذا المظهر من عام لعام حتى تظل البنات والنساء من بعدهن مشغولات بمظهرهن المرتبط بالملابس والمكياج، ومن ثم

الحجاب والسفور فلا يتحسسن أجسادهن عارية أمام المرآة، وما يترتب على مثل ذلك من انشغال عن أمور المجتمع الحيوية أى الولادة والحمل، ولكن حتى هذا من الممكن تلافيه لو أقررنا قاعدة ثابتة فيما يخص وزن الجسد، بحيث يكون انحساره وانكماشه أرق، ومن ثم أكثر احتراما وبذا يصبح هدفهن النحافة التامة، أو التلاشى والشبحية، كل وعزيمتها، كل وقدر توقها إلى عوالم الروح الخالصة. على أن يذكرن بانتظام أن الجنة تحت أقدام الأمهات».

يومها علقت صورة «تويجى» عارضة الأزياء الإنجليزية على ضلفة الدولاب الداخلية ونذرت نفسى للصوم كل اثنين وخميس.

وزنى لا يزيد على سبعة وأربعين كيلو جراما، أفطس صدرى فى «سوتيان» ضيق، وأشد البلوزة من فتحة رجل لباسى كى أمحو أى نتوء ممكن. كان من المفترض أن يكفل لى ذلك القضاء على كل رغبة وكل حاجة إلى جسد يكمل فجواتى. لكنه عندما بدأ يزيح عنى ملابسى

الصيفية القليلة وقفت مسلوبة الإرادة أستمتع بلمسه يخدر عضلاتى المشدودة على الاحترام، يلينها ويرخيها يعيد تأهيلها. لما وقعت يده على «الكورسيه» ضحك:

- «إيه ده؟»

ولم أرد بما تبادر لذهنى وكان الحقيقة: حتى لا أهتز وأنا أمشى.

ابتسم فبدت لى حاجتى التى كانت تئن للإشباع عورة ذليلة تتسول الستر. ارتديت ملابسى فى خزى وخرجت. فى الطريق لمحتها. مدام خاندريس.

كانت تلبس شورتا ضيقا وتمسك فى يدها كرتونة مربعة، كان الدم يسيل من جانبى فمها وهى تسرع نحو النهر عندما بدأ المطر يهطل وارتفع صوت رانيا مسبحا للأمواج، ناثرا تحديه على أعرافها يسكب الدموع على احتدام سخونة الغضب ورعد الانتقام ورحت أتمتم معها، صوتى خفيض مرتعش فى البداية ثم متلمسا الثقة من الهدوء المنتشر رويدا فزعقت:

- أنا المره دى.. أنا المره دى!

# دعاوى الورود الحمراء

وقف ينتظر عند ناصية الطريق. أراه الآن كما وصفته أختى. عيناها لوزتان كبيرتان يتحرك سوادهما فى شغف المرتقب وهى تقرأ «تنسيون»:

إنها قادمة، حبيبتى، يمامتى

حياتى وقدرى قادمة

والوردة الحمراء تنبهنى:

قريبة هى قريبة.

والوردة البيضاء تبكى: تأخرت

أحب أن تقرأ لى أختى وأحب اختياراتها، أحب براءة عينيها وصرامة شفتيها وذقنها المدبب. دقيقة دقة تشبه ملامحها وبها هوس لترتيب الأشياء. تعتقد أن الآخر ليس سوى الرغبة فى تجدد الحياة متجسدة وتحب «سارتر». إذا رأت من ينزلق صاغرا إلى ردهات تحنيط المشاعر تحت ضغوط غوايات الاحترام انقلبت إلى جلاد لا رأفة

فى قلبه ولا رحمة:

- يا شيخة روحى موتى وخلصينا بدل النفاق والكدب ده!

ولكن عندما ترى الدمع يتجمع وراء القلب المستور خلف حوائط المحاذير التي لا تبلى وتدرك أنها تعسفت تروح أناملها الطويلة المدهشة فى رقتها، تتخلل شعر رأسى حول أذنى حيث بدأ المشيب وتعتذر:

- أنا آسفة، لكن ولا يهمك، يا بنتى دول حمير! حد يخاف من الحمير؟!

طول عمرى لا أخاف إلا من الحمير. فى الصغر، عندما كانوا يذهبوا بنا إلى الصعيد وتحضر جدتى الحمير لنركبها ويصر الجميع أن أركب معهم كنت أخاف.

- فاكرة عم على كان بيعمل إيه؟ كان يركبنى الحمار بالمقلوب، وكان ذلك يسعد دادة فاطمة جدا، فتقهقه.

- تفتكرى عم على كان بيجرسنى؟

- حرام عليكى، عم على بيحبك أكثر من أى حد فينا، بلاش الظنون دى.

ليس كل ظن إثما. لقد سمعت الحمير تقهقه في ضحكات أقسى من ضحكات دادة فاطمة.

وكان ذلك مساء يوم جميل، دلفت إلى دكان يبيع الورود واشتريت تسع وردات بلدية حمراء، حملتها إلى سانتا تريزا ووضعتها على سلالم المذبح وصليت من أجل عيونه وعيون أختي شبيهته:

– يا سيدة القلوب الصغيرة الشجاعة، أحرسيهما وانشري شذى ورودك ذرى في عيون حسادهما، واحرصي وخافي فلا تجعلي أنفاسك العطرة تطفئ نيران التنين الذي يتصدى لأعدائهما، وطهري قلبيهما من الظنون واجعلي من شمعك الفواح في آذانهم وقراً فلا يسمعون قهقهات الحمير، مثلي.

كانت دعوة ملتبسة، ترى هل تصل الدعوات الملتبسة حيث يرجى لها أن تصل؟

# الوقت كان أجازة

لماذا أنت هنا الآن؟ وأنت تعلم أن أبريل «أقسى الشهور» فيه بيتى وأشيائى التى أحبها وأخاف عليها منك تبعثرها، جمعتها بعد عناء ولما أعود إليها من عالم الفوضى الذى لا أحبه كثيراً ونخلقه موازيا لزمن الناس والمدارس والمصالح الحكومية، لا أستطيع ترتيبه كما كان فى الخريف وأشفق على وهنى وقلة عزيمتى. كنت قبل أن تصل قد فرغت لتوى من ترتيب، بيت قاسى، فى قسوة المدن الفاضلة كان خالياً من الزخرف تماماً، الكلام فيه همس، ولم يكن لدينا ماء ساخن للتحمم. أحيانا ورضوخا لأعراف تكريم الضيوف مثلك كنا نشترى حصصاً قليلة من البن والشاى. فيما عدا تلك الأوقات لم نكن نشرب سوى الماء. كنت أدرب الروح أن تستقى زادها من شمس الصباح الباهتة واستلهم عزائى من أن الوقت أزف ولم يعد هناك بد من الاستمرار في الرحيل فى سبتمبر.

من زمن وأنا أفضل العيش فى سبتمبر. سبتمبر يذكرنى بالبيوت النظيفة الناصعة من الأثاث وبالشماسى على الشط تنطفئ واحدة واحدة وتعود الأمواج تلعق الرمل لتمحو ذكرى فراق الصيف الطويل، فأستعد بالاطمئنان الذى يليق وشعيراتى البيضاء وخطوط الضحك حول عينى ثابتة، أرقب ابنى يقع فى الحب لأول مرة، أبتسم وألوح له بخرائط الذاكرة فى زهو من عاش كما أراد: هنا كانت طفلة تلهو ونسيت جاروفها الصغير والدلو البلاستيكى الذى كان يستحوذ على كل كيانها من لحظة وهناك كان شاب يلعب الراكيت وينظر من طرف عينه إلى فتاة فى طريقها إلى البحر، لم تنزل البحر إلا لتمر من أمامه، افتعل عدم الاهتمام فأخذ المضرب ونسى الكرة. وعلى كرسى خشبى صغير جلست امرأة فى وهج الصيف وسخونته، قريبة جداً من الشاطئ، تبلل قدميها وحيدة تنتظر من الأفق أن يدنو لتتفحصه وتفهم لم هى وحيدة هنا. كان من الممكن أن تأتى فى مثل تلك الأوقات لأنها أوقات كان مسموحا بها ولأن الوقت كان إجازة، ولو

كان تسنى لى حتى أن أقع فى حبك وقتها، حتى لو كان الفصل ربيعاً ما خجلت من نفسى، لأنى لم أكن أدرى أى بهاء عميق يسكن قلب سبتمبر، ولم أكن قد زرت انجلترا بعد. هناك يكون أبريل قاسياً بالفعل لأن البراعم تشتق حياتها من براثن الصقيع بطلوع الأنفس فيحق لأحدهم أن يكتب أغنية لبهجة انتصار الحياة.

هنا الربيع مدلل. يأتى، يختال، تذكر؟ يثرثر. يأتى كما يأتى أطفال المدارس المنتقون بحرص إلى التليفزيون ويحفظونهم أغنية تثير الشفقة من فقرها وكذبها. الربيع هنا بهجته سهلة وأصواته عالية لا حياء فيه ولا سكرة للروح. ولذا أخافه وأترفع عنه قليلا، وأتفادى ملاحظة مظاهره، من أول ورود الجهنمية البيضاء التى تنفجر فجأة فوق الباب الحديدى الذى يحرس منزلى، وحتى روائح الفل وزهر البرتقال فى المساء. وأؤكد لنفسى أن سبتمبر هو أقسى الشهور.

وأن إليوت كاذب، وأننا لولا القسوة ما عرفنا معنى للمشاعر الطيبة التى تجعل منا بشرا. لماذا أنت هنا الآن؟

كالخماسين تتطلب إزالة الأتربة التي تتركها وراءها زمن
يبدو لى من مشارف كهولتى ردحا.

لماذا لم تصل فى سبتمبر؟

# حكاية لا تنتهي

زعمت إحداهن فى يوم أنها جميلة جمالا لا يوصف، فكانت إذا نظرت فى المرآة تكاد المرآة تتبختر من فرط الزعم. الأدهى أن تلك السيدة كانت تنتمى أيضاً من ناحية الأم إلى أسرة يكبر أبناؤها على الاعتقاد أنها عريقة، فلم تصبها الثورة فى أعز ما تملك سوى هنا وهناك ولفترات وجيزة: المال والأسفار، وكان ذلك بسبب أنهم ناسبوا الحكومة وأصبحوا «قرايب». إضافة إلى ذلك كانت الجميلة متعلمة تعليماً جامعيا وتتحدث الإنجليزية بطلاقة وإن ظلت فرنسيتها «مجوييه» أى داخلها لغة درزية، أما عربيتها فكانت دايو يابانى. الأدهى. أن تلك السيدة لم تكن تكتفى بكل هذه النعم التى حباها بها الله سبحانه دون أى جهد يذكر من ناحيتها فقررت أن لها موهبة لا يرقى إليها سوى أندر البشر: الشعراء. لكنها ولأنها كان بها مس ضعيف من الذكاء العملى قررت ألا

تقرب الشعر وتكتفى بكتابة القصص فكانت هذه الحكاية:

فى يوم معلوم لله وحده التقت السيدة العجيبة برجل سلب لبَّها تماماً ولما كان لبُّها هذا من النوعية التى يقشرونها للتسلية، وجد الرجل نفسه فى وقت قياسى وقد جمع تلاً كبيراً من القشر. ولما كان الرجل جامعا للقمامة بحكم المهنة، راح يبتسم ويكنس القشر وهو سعيد، بعدما انتهى من مهمته وجد نفسه أمام تل القشر واقعا فى غرام تلك المرأة حتى الثمالة، فراح يحتسى الخمر ليل نهار حتى ينسى، كما علموه فى الأفلام. ولما سأل نفسه فى لحظة استفاقه عن سر كل هذا الحب، جاوبته نفسه فى صرامة اعتيادية «لو كان سر بتسأل ليه». جلس الرجل يحدق فى تل القشر الذى كان يحتفظ به فى ركن غرفته التى كانت فيما عدا هذا التل غرفة فى منتهى النظافة والنظام. نظر الرجل إلى التل الصغير وراح يكلم نفسه:

كنت أجمع القمامة طوال الوقت، أخفف عن أصحابها لتظل بيوتهم نظيفة من غير سوء، كثيراً ما لقيت قشراً

فما الذى يختلف فى هذا القشر بالذات؟ ولماذا هو هنا فى غرفتى ويظل؟ ما الذى يمنعنى من الذهاب به إلى المحرقة؟ لماذا أترك غرفتى لقشر تلك المرأة تنتقص من نصاعة نظافتها وأجلس أحدق فى هذا الكوم وأبتسم؟ وبدا له حال نطق السؤال الأخير الذى توجه به إلى الكتب على الرف أن كرامته التي قضى عمرا غير قليل يروضها على التواضع تعود سيرتها المتمردة الأولى، فقام إلى تل القشر ليحرقه لكنه تراجع فى اللحظة المناسبة، لقد خيل إليه أن التل يتألق تحت ضوء أباجورة القراءة مع أن الوقت لم يكن متأخراً. فرك عينيه ودخل المطبخ يصنع لنفسه فنجانا من القهوة المُرة يعيد لحواسه واقعيتها. جلس يرتشف قهوته فأشعل سيجارة وقال لنفسه وقد أشاح عن أرفف الكتب فى صوت واضح:

«خيل إلى أن هذه الكومة التي لابد أن أحرقها ما هى إلا كومة تِبْرٍ خالص»، ثم كرر بصوت أخفض: «خيل إلى».. ولما أفاق من غفوته على تلك الحقيقة المذهلة دخل لينام واستطاع. فى اليوم التالى فوجئ بامرأة القشر

تأتيه حيث كان يعمل وتتلكأ للحديث وعندما تنتهى الحجة التى جاءت بها، وكانت واهية جداً جداً، تقف مشدوهة لا تستطيع مغادرة المكان وقد تسمرت قدماها فى الأرض. وبالطبع. - أى بعد التحميض - لم يخطر ببال جامع القشر الذى كان يهوى التصوير فى أوقات الفراغ، أن تلك السيدة من الممكن أن تكون - ولسبب عبثى تماما - قد وقعت فى غرامه، ولكنه سرعان ما تأكد له أن الأمور هى بالفعل على هذا النحو المخيف عندما وقفت المرأة «الشيك» كما وصفتها يوما صديقتها الإنجليزية تقول للرجل الصعلوك:

- ليتك تبقى معى.

فنظر الرجل وراءه وكانت صورة كوخه على مقربة من المكان الذى تواجدا فيه فرنا إليها وهنا قالت المرأة:

- فى أى مكان ترى.

لم يصدق الرجل نفسه فى البداية ولكن ولأنه كان رجلا فى منتهى الذكاء والصدق مع النفس قرر امتحان الموقف حتى إذا ما تأكد له أنها تعنى ما تقول، عقد عزمه.

وأنالها من وجدانه ونال من وجدانها. وبعد أن اختلطت الوجدانات، وكانت الشمس في كبد السماء تنحنحت المرأة مرتين فضحكا ونظرت المرأة مليا في عيني حبيبها الذي أصبح وقالت:

– منذ متى وأنت جامع قشر؟

– أنا لا أجمع القشر.. قال: فقط، أنا أجمع أياما على هيئة صور ودائما كانت تحترق قبل التحميض من نفسها، أحيانا كنت ألقى قشرا فكنت أحرقه معها.

قالت: وأنا لماذا لم تحترق أيامي وكانت على صورة قشر؟

قال: لابد وأن هناك أياماً لا تحترق ولا تذبل ولا تموت، تكبر وحين تشيخ تولد من نفسها. تنحنحت المرأة مرتين لكنه لم يضحك مثلما ضحك في المرة الأولى، فأطرقت تنظر في صمت وإذا وجهها يروح يملأ الأفق أو هكذا خيل للرجل، وسمعها تصرخ:

– وأنا والكومة التي في غرفتك ماذا ستفعل بها؟

قال: لم تعد هناك أية كومة.

ارتابت المرأة فبدت ريبتها فى صوتها وهى تقول:

– ماذا تعنى بالضبط؟

وردَّ الرجل مبتسماً فى رقة:

– أعنى أنك الآن بعد الطبع.

وبدا لها مصيرها هذا مخيفاً وبدا لها أن الرجل يبددها فاستجمعت كل قواها ولملمت وجهها من الأفق وصرخت فيه:

– لماذا تحيلنى إلى شمس بعيدة ثم تطبع أيامى صوراً؟ لماذا؟ حتى لا أذبل؟ حتى لا أشيخ؟ حتى لا أموت؟ أنا أريد أن أشيخ وأذبل وأموت مثل كل ما هو طبيعى، مثل كل ما هو حقيقى.

التفت إليها الرجل وقد ابتلعت الدهشة عينيه اللامعتين العميقتين فقال:

– ولكن أنا لا أريد أن أشيخ وأذبل وأموت.

ردَّت: وما دخلك أنت فى هذا؟

قال: ألم نصنع هذه الحكاية سويا؟

وإذا وجهه يروح يملأ الأفق أو هكذا خيل للمرأة.

## الفهرس

## صدر لها

خشب ونحاس – مجموعة قصصية – **دار شرقيات ١٩٩٥م**

## صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢١٦ - تفاصيل وتفاصيل أخرى.........شعر : ابراهيم داود

٢١٧ - هى وخادمتها .................. قصص : هناء عطية

٢١٨ - كتاب العشق ............. شعر : عبد الدايم الشاذلى

٢١٩ - حكايات جار النبى الحلو.. قصص : جار النبى الحلو

٢٢٠ - الحنين ..................... شعر : عبد العظيم ناجى

٢٢١- نسيم الصبا..................... قصص : زينب صادق

٢٢٢- بندق ........................ قصص : محمود حنفى

٢٢٣- الغالب والمغلوب............ رواية : مصطفى الأسمر

٢٢٤- مساحات للتعب ............ شعر : سمير عبد الباقى

٢٢٥- مشتهيات ......................... رواية : سهام بدوى

٢٢٦- أشعار ......................... شعر : ابراهيم رضوان

٢٢٧- القابض على الجمر ............ قصص: رفقى بدوى

٢٢٨- حلاوة الروح ......................... شعر : أمين حداد

٢٢٩- يونى سكس ..................... قصص : علاء البربرى

٢٣٠- الأرض جحيم الخائفين ............ شعر : حسن عقل

٢٣١- حلوانى عزيز الحلو ............ رواية : محسن يونس

٢٣٢- فراديس الحوارى ............ شعر: ابراهيم خطاب

٢٣٣- مقاطع من جولة ميم المملة ...... قصص: حافظ رجب

٢٣٤- هذا دمى وهذا قرنفلى ................ شعر : وليد منير

٢٣٥- توتة مائلة على نهر ........ قصص: محمد ابراهيم طه

٢٣٦- معلَّقةٌ بشص .................. شعر : فريد أبو سعدة

٢٣٧- موسم الرياح .................. رواية : سمير المنزلاوى

٢٣٨ - كيف طاوعك الرحيل؟............ شعر : مختار النادى

٢٣٩- تحولات إنسان عابر......... قصص : جمال زكى مقار

٢٤٠- خيانات ذهنية ............... قصص : مى التلمسانى

٢٤١- ذهبت إلى شلال.................. قصص: بهاء طاهر

٢٤٢- حالات التعاطف ..................... قصص: نورا أمين

٢٤٣- تل القلزم ....................... رواية : محمد الراوى

٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت ........... محمد المخزنجى

٢٤٥- صور من ألبوم نيويورك........... شعر : أحمد مرسى

٢٤٦ - بروفات........................ قصص : عفاف السيد

٢٤٧- ريحة البلاد التانية ............ شعر : ابراهيم سلامة

٢٤٨- ثلاثية الوجع ..................... قصص : بهاء السيد

٢٤٩ - تعاسات شكلية............. قصص : محمد الشاذلى

٢٥٠ - كوميديا .......................... شعر : فارس خضر

٢٥١ - آخر حبه مزيكا ............... شعر : صادق شرشر

٢٥٢- السيدة التى ............ قصص : صبرى موسى

٢٥٣- شال من القطيفة الصفراء... قصص : عبد الوهاب الأسوانى

٢٥٤- فى هذا الصباح ...... قصص : أبو المعاطى أبو النجا

٢٥٥- دكه خشبية .................. رواية : شحاته العريان

٢٥٦- زهرة البستان .................... قصص : فؤاد قنديل

٢٥٧- الجرذان .................... قصص : فاروق حسان

٢٥٨- أسفار الملك الضليل .......... شعر : حسن النجار

٢٥٩- هذا ظل الأرض على قلبى..... شعر: فتحى فرغلى

٢٦٠- ذلك الجانب الآخر .......... شعر : حسن سليمان

٢٦١- الحياة مش بروفة .......... شعر : مجدى الجابرى

٢٦٢- شخص غير مقصود.... قصص : منتصر القفاش

٢٦٣- عمل نبيل ................. قصص : إدوار الخراط

٢٦٤- طارت مناديل السعاده..... شعر : طاهر البرنبالى

٢٦٥- حارس الغيوم...........قصص : سمير عبد الفتاح

٢٦٦- المسافر الأبدى(قصص وحكايات)..........: علاء الديب

رقم الإيداع : ١٦٨٨٧/ ٩٩

الأمل للطباعة والنشر

## قسيمة اشتراك

## إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاســـــم : ..............................................................................

العنـــوان : ..............................................................................

رقم التليفـــون : ........................................................................

حوالة بريدية رقم : ........... باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ :...........

التوقيع :

| م | اسم السلسلة | موعد الاصدار | قيمة الاشتراك ٦ أشهر | | قيمة الاشتراك سنة كاملة | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| ١ | أصوات أدبية | نصف شهرية | ١٢ | | ٢٤ | |
| ٢ | إبداعات | نصف شهرية | ٦ | | ١٢ | |
| ٣ | كتابات أدبية | شهرية | ١٢ | | ٢٤ | |
| ٤ | آفاق الترجمة | شهرية | ١٢ | | ٢٤ | |
| ٥ | آفاق الكتابة | شهرية | ٦ | | ١٢ | |
| ٦ | الذخائر | شهرية | ٣٠ | | ٦٠ | |
| ٧ | ذاكرة الكتابة | شهرية | ١٨ | | ٣٦ | |
| ٨ | مطبوعات الهيئة | شهرية | ١٢ | | ٢٤ | |
| ٩ | الدراسات الشعبية | شهرية | ١٢ | | ٢٤ | |
| ١٠ | عين صقر | شهرية | ٦ | | ١٢ | |
| ١١ | مجلة الثقافة الجديدة | شهرية | ٦ | | ١٢ | |
| ١٢ | مجلة قطر الندى | نصف شهرية | ١٦ | | ٣٢ | |
| ١٣ | مجلة آفاق المسرح | فصلية | ٤ | | ٨ | |
| ١٤ | آفاق الفن التشكيلى | شهرية | ٢٤ | | ٤٨ | |
| ١٥ | الجوائز | شهرية | ٦ | | ١٢ | |
| ١٦ | آفاق السينما | فصلية | ١٨ | | ٣٦ | |

**ضع علامة ( ✓ ) أمام السلاسل التى تريد الاشتراك فيها فى المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة**

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ أ ش أمين سامى – قصر العينى – القاهرة

ت : ٣٥٦٤٨٤١ – ٣٥٦٤٨٤٢ – فاكس : ٣٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدى : ١١٥٦٢